عمّـــــــــــو

(حب في القطار)

رواية رومانسية قصيرة

بقلم:

م. محمد حمدي غانم

عن الكاتب م. محمد حمدي غانم

- مدونتي:
http://mhmdhmdy.blogspot.com

- قناتي على يوتيوب:
http://www.youtube.com/user/mhmdhmdy

- صفحتي على فيسبوك:
https://www.facebook.com/Poet.Mhmd.Hmdy

- كتبي في مجال البرمجة بلغتي فيجوال بيزيك وسي شارب:
http://mhmdhmdy.blogspot.com/2010/09/blog-post_9555.html

- صفحة فيجوال بيزيك وسي شارب:
https://www.facebook.com/vbandcsharp

- لتحميل ديوان دلال الورد:
http://www.mediafire.com/?n1qte7j9hdv1l98

- لتحميل رواية "حائرة في الحب":
http://www.mediafire.com/?hd1jy6ca4ay3m9w

خرافة داروين:

حينما تتحول الصدفة إلى علم!!

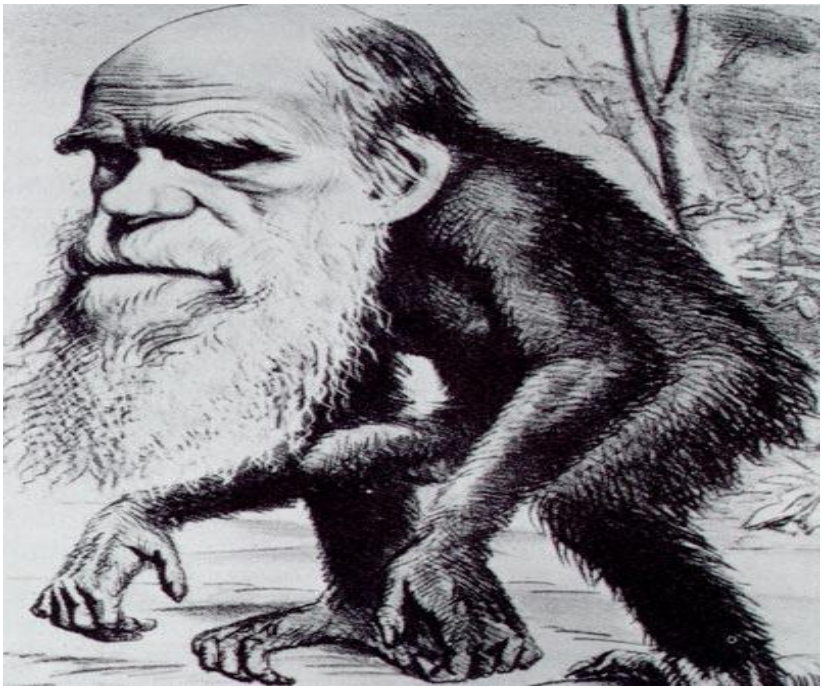

- لتحميل كتاب "خرافة داروين":

http://mhmdhmdy.blogspot.com/2013/11/blog-post_29.html

(١)

هالة

ابتسم وهو يسألها:

- ألا تبدو لك كلمة (عمو) كبيرة عليّ؟

سألته ببساطة:

- بماذا تريدني أن أناديك؟

فكر لحظة وهو يتأمل ملامحها الصغيرة..

إنه يكبرها بست سنوات.. هذا أكبر من أن تناديه بـــ (مـــاهر) مجردا.. لكنه ما زال طالبا في الجامعة، وهذا أصغر من أن تنعم عليه بالأستاذية!

ابتسم قائلا باستسلام:

- قولي لي يا عمو!

***

لم تكن (هالة) مجرد مراهقة تخطو خطواتها الأولـــى فـــي عـــالم الأنوثة بأعوامها الأربعة عشر، حينما جلست قبالته يوما منذ سبع سنوات في هذا القطار.

كانت أكبر من سنّها بمراحل، تشعر وأنت تخاطبها بذلك النـــضج المبكر، مع شجن خاص يفوح من عينيها..

شجن لم يحتج وقتا ليتسلل عبر مسام قلبه فيشعره بإشفاق غامض تجاهها.

وربّما لمحت في عينيه هذا التضارب بين الانبهـــار والإشـــفاق، فسألته بغتة بشرود:

- عمو.. لماذا يقول لي الجميع بأن عقلي أكبر من سني؟

ابتسم قائلا:

- ربما لأنك تتكلمين بثقة وتجيدين فهم مقاصد من يحـــاورك من أول مرة.. نحن نعجب دائما بمـــن يفهمنـــا بـــسرعة، ويصور لنا غرورنا أنهم في غاية الذكاء لفهمهم ما نطرحه عليهم من فلسفاتنا العميقة!.. مع أن سوء التفاهم في الغالب يكون نابعا عن عجز المتكلم عن إيضاح مقـــصده، ولـــيس بالضرورة عيبا في المتلقي.

تفكّرت في كلماته بشرود، وهو يتأملها مستشفا وقع كلماتـــه هـــذه عليها.

كان كل ما مضى من حوارهما قد جعله على يقين أنهـا تفهمـه جيدا.. أو على الأقل هي بارعة في إظهار هذا، وهذا في حد ذاته ذكاء اجتماعي تحسد عليه!

قالت فجأة:

- كلامك كبير يا عمو.. ماذا تعمل؟
- لا أعمل بعد.. أنا طالب بالنسة الثالثة في قسم التاريخ بكلية الآداب.
- لهذا تبدو حكيما.. كلامك يشبه كلام جدي!
- (ضاحكا) يا إلهي.. هل صرت كبيـرا لهـذه الدرجـة؟.. عموما يا هالة أنا لست حكيما لهذه الدرجة.. لكـن قـراءة التاريخ تضيف إلى عمر المرء خبـرات الآخـرين، وقـد تخصصتُ في هذا الفرع بسبب حبّي للتاريخ، ولعل هـذه هي الميزة الوحيدة في كلية لم يعد لخريجيها أي وظيفة في هذا المجتمع، ولا يدخلها إلا المحكوم عليهم بالتنسيق مـع سبق الدرجات والترصد!

وجدها صامتة تتابعه بانتباه فنظر عبر نافذة القطار إلى الحقـول المترامية، وواصل كأنه يحدث نفسه:

- إنني أستمتع بقراءة التاريخ.. يبدو لي كحواديت مثيرة فيها عبر كثيرة.. وأشعر دائما أن التاريخ يعيد نفسه.. الحقيقة أن البشر لا يتعلمون أبدا.. دائما وأبدا يعيدون نفس أخطائهم وأخطاء أسلافهم وأسلاف أسلافهم.. تُحركهم دائما نفس الدوافع: الغرائز والنقائص والمشاعر والأحلام والآمال العريضة.. كثيرا ما أتخيلهم كموج البحر يهدر ويزمجر ويحلم بالوصول إلى الشاطئ في حماس متوحش.. ثم حينما يصل أخيرا تكون الرحلة قد أنهكته، فيتهاوى خائرا متكسرا على رمال الشاطئ ويذوب وينتهي.. أمواج تتلو أمواجا من البشر الذين لا يتعلمون أبدا!

هزت رأسها متفهمة بشجن، فالتفت إليها سألها فجأة:

- أنتِ مثلا بمَ تحلمين؟

باغتها السؤال فقالت بارتباك:

- أنا؟

- نعم.

صمت لحظة ومطت شفتيها قائلة:

- لا أدري.. أحيانا أشعر أنني مختلفة عن الأخريات.. صاحباتي يتكلمن دائما عن الأزياء والعطور والموضات والذهب والجمال وفارس الأحلام وعش الزوجية _ الذي لم يعد عشا في الحقيقة بل قصرا _ والأثاث والأجهزة الحديثة، ومن أحضرت ماذا ومن لديها ماذا.. لكني لا أجد في تكرار هذا الكلام سوى رتابة تصيبني بالملل.. أشعر أن الحياة أكبر من أن أستهلكها في هذه الدائرة المغلقة.

سألها بمكر:

- تعنين أن كل هذه الأشياء التي ذكرتِها لا تعنيك؟
- حتما تعنيني.. ولكن ليس إلى درجة الهوس.. دعني أستخدم أسلوبا من تلك التي يلقنونها لنا في حصة التعبير.. كل هذه الأشياء وسائل لكنها ليست غايات.. أتعرف: هي في نظري ليست أغلى من الهواء الذي لا أستطيع الحياة دونه، ورغم هذا لا أتوقف للتفكير فيه عند كل نفس أتنفسه.

ابتسم وهو يرمقها بإعجاب، فسألته بابتسامة خجلى:

- هل استطعت أن أوصل إليك مقصدي؟
- ببلاغة!
- (تنهدت) خشيت أن تسخر مني كما تسخر مني زميلاتي.

- لا تخشَيْ.. إنك على صغر سنك أذكى من زميلاتي في الجامعة.. يمكنك أن تقولي إنهن من نفس نوعية صاحباتك، تقدمت بهن أعمارهن وتجمدت بهن عقولهن.. ما زلن يتكلمن بحواسهن القاصرة!
- يتكلمن بحواسهن!.. يا له من تعبير!
- نعم.. إنهن أسيرات ما تنقله إليهن حواسهن، فتتشكل طموحاتهن واهتماماتهن حول ما يحقق أكبر متعة لهذه الحواس.. كيف ترى العين الأجمل من الأماكن والأشياء والشباب.. وكيف تسمع الأذن الأعذب من الأصوات والموسيقى وكلمات الحب.. وكيف تنعم جلودهن بالأنعم والأوثر والأفخر من الثياب والأثاث والحليّ.. وكيف تشم أنوفهن الأذكى من العطور، وتتذوق ألسنتهن الألذ من الأطعمة.. وهكذا تتمحور كل أفكارهن واهتماماتهن حول هذه المشاعر والأحاسيس والعواطف والغرائز، فتتقلص عقولهن وتتدنى نفوسهن وتستوحش أرواحهن.
- ولكن.. ألا ينطبق هذا على الرجال أيضا؟
- بنسبة كبيرة نعم!.. لكن عواطف النساء وارتباطهن بالمادة أقوى وأكثر حدة.. ربما ينجذب الرجال أكثر للسلطة

والقوة، لكن ما يجعلهم يغرقون في عالم المادة أكثر هو ضعفهم أمام النساء ورغبتهم في تلبية احتياجاتهن.. خذي الذهب مثلا: لو لم تكن النساء مفتونات بالذهب طوال التاريخ، هل كان ليكتسب أي قيمة عند الرجال، ليقتلوا بعضهم تنافسا لامتلاكه؟

ابتسمت قائلة:

- هل نحن شريرات إلى هذا الحد؟.. أتوقع أن تذكر حالا قصة خروج آدم وحواء من الجنة!

ضحك بمرح قائلا:

- لا أقصد هذا.. فالحقيقة المؤكدة أن الله سبحانه قد خلق هذه الغرائز في الرجال والنساء كطاقة دافعة لاستمرار الحياة وإعمار الأرض.. يقول تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآب).. وكمثال تاريخي: لقد أدى هوس النساء بالذهب واقتتال الرجال عليه سعيا لإغراء قلوبهن وسلب عقولهن، إلى تطوير علم الكيمياء، فقد أفنى آلاف الباحثين بل والنصابين أعمارهم بحثا عن طريقة لتحويل

الحديد أو المعادن الأخرى إلى ذهب، أو على الأقل لخداع الناس بأنهم قد فعلوا هذا باستخدام بعض الحيل الكيميائية لطلاء المعادن الرخيصة بقشرة رقيقة من الذهب.. ورغم أن حلم تحويل الحديد إلى ذهب قد باء بالفشل حتى يومنا هذا، فقد قاد البشر بالمصادفة إلى كشوف كيميائية كبيرة، وطور معرفتهم بالتعدين وخصائص المواد.

- مرحى مرحى.. تفاهة النساء مفيدة إذن!
- (ضاحكا) وهوس الرجال بالنساء أيضا!

تأملت في كلماته لحظات، قبل أن تسأله باهتمام:

- وما البديل إذن يا عمو؟.. أعني أن كل ما ذكرته من مدركات الحواس هو بالنسبة لنا الدنيا.. الحياة.. الواقع.. العالم المحيط بنا.. ومن الطبيعي أن ينشغل الإنسان بهذا العالم ويهتم به ويبحث لنفسه فيه عن الراحة والمتعة.. فماذا يكون وراء ذلك؟

أدهشة تجاوبها مع أفكاره بهذه السرعة، حتّى إنه بدأ يتشكك في صحة عمرها الذي أخبرته به.. أربعة عشر عاما تبدو صغيرة جدا بالنسبة لقدرتها على استيعاب تأملات كهذه!

بل إن جسدها يبدو ناضجا كأنها أكبر من هذا بعامين.. ولكنه عاد فذكر نفسه بفتيات كثيرات نضجت أجسادهن سريعا، لكنه لم يعرف قط فتاة نضج عقلها بمثل هذه السرعة!

نفض أفكاره وابتلع تساؤلاته وقال:

- هناك ما هو أبعد وأعمق من عالم الحواس.. تماما كما قلت أنت.. كل هذه أشياء ضرورية كالهواء لا نستغني عنها، لكنها مجرد وسائل لا غايات.. المشكلة حينما تعمينا هذه المتطلبات الحسية للعالم المادي عن عوالم أخرى أوسع وأرحب.. فهناك عالم الروح، حيث ستجدين أولئك الزاهدين الباحثين عن الله، الذين تقود ضمائرهم حواسهم، وهم أكثر الناس اتزانا وتحكما بغرائزهم وعواطفهم، وأكثرهم راحة واستقرارا وسعادة.. وهناك عالم العقل والفكرة، حيث يتربع العلماء والمثقفون والباحثون عن الحقيقة، الذين يفتشون عما تلهيهم عنه حواسهم، ويبحثون عمّا يخفيه عنهم قصورها عن إدراكه أو تفسيره.. هناك أيضا عالم الخيال، حيث يهيم الفنانون والشعراء والمبدعون، وهو عالم رحب بلا حدود، ولا غنى لأحدنا عنه.. وبدون هذه العوالم الثلاثة: الروح والعقل والخيال،

كانت حياة الناس المادية ستتحول إلى سجن خانق ممل، لا يجدون فيه هدفا لكفاحهم، ولا اختراعات تخفف عناءهم وتعالج أمراضهم، ولا قصصا وأغانيَ تزيل صدأ الملل عن نفوسهم وتشحذ مشاعرهم.. لكن المحبط أن كثيرا من الناس يستمتعون بكل هذا دون أن يقدّروا آلاف البشر الذين انعزلوا عن حياة المادة ليوفروه لهم، بل ستجدين كثيرا منهم يسخرون من تضييعهم لحياتهم بدون أن يستمتعوا بها!

تألقت عيناها واختفى شجنها لأول مرة وهتفت بحماس:

- كلامك جميل يا عمو.. نعم.. هناك عوالم أخرى وأناس آخرون، يتطهرّون لهم ولنا، ويفكّرون لهم ولنا، ويحلمون لهم ولنا، فيخففون وطأة عالم المادة عنا!

زاد اندهاشه منها، وتردد لحظة أن يصعد بها إلى مستوى أعلى من التأمل، لكن سعادتها بمساعدتها لها في استكشاف عالمها الفكري شجعته على أن يقول:

- الأعجب من هذا أن كلّ هذه العوالم تلتقي في النهاية داخل عقولنا.. فنحن نحس وندرك ونفكر ونتأمل ونحلم بعقولنا، حيث كل شيء في النهاية ما هو إلا إشارات كهربية يعالجها المخ، بعضها أصدرته حواسنا كترجمة للعالم

المادي، وبعضها الآخر أحسه القلب واستلهمته الروح، وبعضها أنتجه العقل نفسه دون أن يكون له وجود ملموس، بل حتى بلا وعي منّا!

- هلا أوضحت لي هذه النقطة قليلا.
- خذي الأحلام مثلا.. هل يوجد أي مصدر مادي لما تسمعينه أو ترينه أو تشمينه أو تتذوقينه أو تلمسينه في الحلم؟
- لا!
- هي فقط مجرد إشارات كهربية أصدرها عقلك وأنت نائمة فأوهمك بأنها حقيقة!.. لهذا فإن العقل هو موضع العالم بالنسبة لنا.. بعض العقول تبحث عن عالمها في قطعة من الذهب أو سيارة أو امرأة أو أكلة أو رداء.. والبعض يستسهل خلق عالمه الخيالي بالخمور والمخدرات ليهرب إلى عوالم خرافية ممتعة لكن مهلكة.. والبعض يصنع عالما من الجمال يودعه في لوحة أو معزوفة أو قصيدة أو قصة أو اختراع.. والبعض لا يجد معنى لأي عالم إلا في عبادة خالق كل هذه العوالم، بديع السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

شردت مع كلماته وهي تنظر عبر نافذة القطار للحقول المترامية، وعلى شفتيها بسمة حالمة جميلة.

ومضت عدة دقائق لم يشأ أن يقطع فيها حبل أفكارها، حتى التفتت إليه قائلة بامتنان:

- شكرا لك يا عمو.
- علامَهْ؟
- لقد أرشدتْني كلماتك إلى إجابة أسئلة كثيرة طالما أقلقتنـــي وأرّقتني وأرهقتني.
- (مبتسما) بل الشكر لك يا هالة.
- علامه؟
- لقد أعدت إليّ الثقة بعقول النساء!

***

(٢)

سلوى

أيقظه من ذكرياته صرير عجلات القطار وهو يتوقف في إحـــدى المحطات.

سبع سنوات مرت على ذلك اللقاء، و(هالـــة) الآن فـــي الحاديـــة والعشرين من عمرها.. لا ريب أنها فـــي ذروة جمالهـــا وتـــألق أنوثتها الآن.

ولكن هل حافظت على تألق شخصيتها وصقلت ذكاءها؟

تنهد وهو يرمق لافتة المحطة.. نفس المحطة التي صعدت إلـــى القطار منها منذ سبع سنوات.

سبع سنوات وهو يمر عليها يوميا في رحلته من وإلى كليته، ثـــم من وإلى عمله.. دون أن يلمحها ولو مرة واحدة!

لماذا لم يعرف اسمها بالكامل، أو يأخذ رقـــم هاتفهـــا أو بريـــدها الالكتروني؟

لماذا لم يعرف أين تسكن؟

لماذا استغرقته لذة الحوار معها حتّى فوجئ بها تودعه في إحـــدى المحطات وتختفي للأبد؟!

كانت هذه الأسئلة تراوده كلما عاودته ذكراها.. والحقيقة أنها كانت تعاوده كثيرا، كلما نفر عقله من الإقتناع بأي فتاة يقابلها في الحياة.. لكنه كان يقول لنفسه دائما إنها كانت مجرد فتاة تعبر الخط الفاصل بين الطفولة والمراهقة، ولم يكن يومها ليفكر فيها بأكثر من هذا.

تنهد محبطا وتمتم لنفسه:

- فلماذا إذن لم أصادفها بعدها ولو مرة واحدة في القطار أو ألمحها على رصيف المحطة بعد أن تكون نضجت ثلاثة أعوام أو أربعة واتضحت معالم أنوثتها وخطوط فكرها؟!

تنهد مرة أخرى في حسرة.

لعلها استخدمت القطار يومها كتجربة ولم يَصِر ركوبها له عادة.

أو لعلها سافرت مع أسرتها إلى الخارج.

أو لعلها.. ماتت!

آلمه هذا الخاطر، فسارع ينفضه عن ذهنه.. الحياة قاسية حقا، لكن لا يظنها تصل في قسوتها إلى هذه الدرجة!

أستغفر الله العظيم.. ما الموت إلا قدر، وهو لا يفرق بين شخص وآخر، ولا يأبه بذكاء هذه وتفاهة تلك!

زفر وتمتم في نفسه:

- ما الذي فعلته بي هذه الصبية بالـــضبط؟.. وهـــل كانـــت موجودة حقيقة، أم أني صنعتها في خيالي في أحد أحـــلام يقظتي؟

أيام تمر وراء أيام، وهي لا تبرح ذهنه، بملامحها البريئة وشجن عينيها.

ليالي وراء ليال وهو يحاورها في ذهنه ويناقش معها في خياله ما يعجز عن مناقشته مع أترابه وزميلاته في الدراسة والعمل، حتّـــى صارت نموذج فتاة أحلامه التي ظل يبحث عن شـــبيه لهـــا بـــلا جدوى، بعد أن تبخرت هي كالسراب!

حتّى إنه واظب على ركوب نفس عربة القطار التي التقيا بها كل يوم، على أمل أن تعود إليها يوما!

وحتى بعد أن أنهى دراسته وانتفت الحاجة لركوب القطار.. ظـــل يستقل القطار من بلدته إلى المدينة التي يعمل بها، رغم أن ركوب سيارات الأجرة أسرع وأسهل.

لكنه ذلك الأمل المراوغ، لم يترك نفسه يوما، فظل يحلم بلقائها.

آه يا هالة.. أين أنت؟.. أين أنت؟

***

أزعجه عن خواطره رنين هاتفه المحمول، فنظر في شاشته.
كانت خطيبته (سلوى)!
شعر بانقباض وتثاقل عن الرد لحظات، ثم حسم أمره وفتح الخط ليجيب:

- مرحبا يا سلوى.. أنا في الطريق.. نعم أستقل القطار كالعادة.. لا لن أغير هذه العادة، وكفّي قليلا عن تأنيبي.. حسن حسن.. لن أتأخر.

وأغلق الخط وهو يزفر في حدة.
سلوى فتاة طيبة وتحبه.. وهي جميلة فعلا ويحسده أصدقاؤه عليها.
لكنه ليس سعيدا معها.. لقد ارتبط بها منذ أربعة أشهر، لأنه كان يجب أن يرتبط بفتاة مناسبة، بعد أن تقدم به العمر ويئس من الانتظار.
وهي كانت الفتاة المناسبة في محيطه.. مدرّسة اللغة الإنجليزية في المدرسة الخاصة التي يعمل بها مدرسا للتاريخ منذ عامين، بعد أن حصل على دبلومة تربوية بعد تخرجه من كلية الآداب.
كانت (سلوى) مولعة به بجلاء لم يَخْفَ إلا عنه، فقد كان قلبه وعقله مع صبية مجهولة في مكان مجهول!

صبية ذكية تذكّره بكنز مخبوء بداخله، تراكم عليه تراب السنين ورتابة المناهج الدراسية السقيمة، وغباء التلاميذ الذين لا يفهمون لماذا يتعلمون أصلا ولا يريدون، وملل الدروس الخصوصية التي اضطر إلى اللجوء إليها ليوفر لسلوى ثمن حلقة من معدن تسمى إسورة ذهبية، كانت تمثل لها أمنية عزيزة لم يشأ أن يحرمها منها، رغم أنها لا تمثل له أي قيمة على الإطلاق!

وهكذا وجد نفسه في النهاية عاجزا عن إيجاد وقت حتى لقراءة التاريخ الذي يهواه ويستخرج منه وقود أفكاره وتأملاته، إلا في الساعة التي يستقل فيها القطار في ذهابه وعودته يوميا!

لم تكن سلوى تافهة.. لكنها لم تكن بنفس ثقافته، ولا تشغلها تأملاته كثيرا، خاصة أنها كانت مثله مستهلكة في المدرسة والدروس الخصوصية.. أي أن أيّ محاولة للنقاش معها في أي شيء غير توفير نفقات زفافهما كانت مجرد صداع إضافي!

فهل يلومها؟!

***

ارتجّ القطار وأطلق صافرته، آخذا في التحرك..

وتنهد (ماهر) في حرارة وتمتم:

- لم تظهر أيضا!

كانت (سلوى) تنتظره على أحرّ من الجمر، فقد اتفقا على الخروج لانتقاء الأثاث، تمهيدا لزفافهما الوشيك.

إنها مزدانة بالمزايا، لكنها رغم كلّ شيء لا تفهمه!

لا يعني هذا أنهما دائما الشجار أو الخلاف.. على العكس: هي مطيعة ومريحة في معظم الأمور.

لكنه يظل عاجزا عن أن يبوح لها بكل أفكاره وآرائه وشحطاته وخبايا نفسه.. فمحاولاته الأولى لفعل هذا أظهرت ردود فعل محبطة منها.. إمّا السخرية أو اللا مبالاة!

لم يجرؤ حتّى أن يخبرها برأيه في كل تقاليد وتقاليع الزواج، التي وجد نفسه غارقا فيها.. مئات الأشياء التي لا يرى لها جدوى، يجب أن يشترياها ليكدساها في (عش) الزوجية الضيق، لمجرد أن الناس تفعل هذا!

أشياء كثيرة تبهجها لم يكن يفهمها، فهو لا يفهم الدنيا بحواسه المجردة، لتنحصر بهجته في زجاجة عطر أو باقة ورد أو ذكرى ميلاد!.. وهي الأشياء التي كان نسيانه لها يغضبها أو على الأقل يحزنها!

وفي كلّ مرة كان يتنهد ويغمغم لنفسه بأسى:

- أين أنت يا هالة.. أين؟

***

- هل يمكنني الجلوس هنا؟

انتزعه هذا الصوت الرقيق من شروده، فأجاب صـــاحبته دون أن يرفع عينيه إليها:

- تفضلي.

وواصل شروده، دون أن يأبه بتلك التي جلست في المقعد المواجه له.. فالوحيدة التي ينتظرها منذ سنوات لم تأت كعادتها!

حتّى حينما سقط بصره على وجهها، كانت مجــرد حركـــة آليـــة شاردة.

ولكنّ عينيها انتزعتاه من شروده، كما ينتزع الإعصار البحر مـــن هدوئه!

وقفزت ضربات قلب ماهر لذروتها، وهو يتمتم بخفوت:

- (هالة).. مستحيل!

ابتسمت ففاحت من عينيها فرحة معبقة بنفس الشجن القديم، وهي تسأله:

- هل ما زلت تذكرني يا عمو؟

***

(٣)

اللقاء

لدقائق ظلّ ينظر لها مشدوها وعيناه تلتهمانها التهامـــا، حتّـــى إن خديها احمرا في خجل!

لقد اكتملت أنوثتها لا شك في هذا..

ربما ليست أجمل من سلوى، لكنها جذابة بشكل آسر، وخمارهـــا يمنحها هالة إضافية من الجمال حول وجهها الخمـــري، لينـــافس وضاءة عينيها الصافيتين.

تلعثمت وقالت بدهشة تحاول أن تخفي بها خجلها:

- ملامحك لم تتغير كثيرا.. لكني أظن أن ملامحي تغيرت.. فكيف عرفتني يا عمو؟

استمر يحدق فيها وقد ألجمه ذهوله عن النطق، وقلبه يعـــدو فـــي صدره كجواد برّي انطلق أخيرا من محبسه.

آلاف الكلمات كانت تتواثب في ذهنه، فيعجز عن الإمـــساك بـــأي منها ليقوله!

ولما رآها تهرب منه ببصرها في ارتباك، تنحنح أخيرا وأجابها:

- لم تختلف ملامحك كثيرا.. فقط صرت أكثر جمالا!

ابتسمت بسعادة مشوبة بالحياء، فتابع وهو ينظر في عينيها:

- ثم إن العينين لا تتغيران أبــدا، مهمــا تغيــرت ملامــح الإنسان!.. وأنا لا يمكن أن أنسى عينين بهذا الجمال، وهذا الذكاء وهذا الشجن.

التهب خداها أكثر وأكثر، وقالت بعتاب لا يخلو من الدلال:

- كفى أرجوك.. أنت تخجلني بكلماتك هذه يا عمو!

سألها مبتسما لينقذها من حرجها:

- ألا تبدو لك كلمة (عمو) كبيرة عليّ؟

ابتسمت وقد فهمت مقصده، فقالت بنفس أسلوبها يوم لقائهما:

- بماذا تريدني أن أناديك؟!

صمت لحظة وهو يلتهمها بعيبنيه، قبل أن يقول باشتياق جارف:

- قولي لي يا عمو!

***

سألها (ماهر) بلهفة:

- أنتِ أيضا ما زلتِ تذكرينني؟!

قال (هالة) بحياء جميل:

- لقد أرشدَتْني كلماتك إلى الطريق.. لا ينسى أستاذَه إلا تلميذٌ جاحد.

وضحكت بعذوبة مضيفة:

- ثم إنك تعرف أن ذاكرة الأطفال قوية.

قال بفتون:

- لم تكوني قَطُّ طفلة.

غزا الشجن نظراتها وهي تهمهم:

- معك حق.. لقد ولدت كبيرة، فتُهت عن طفولتي.
- (بتعاطف) أتفهّم ما تعنين.. ويل لمن سبق عقله سنه.
- (بامتنان) أنت تُشعرني دائما أنني لست غريبة في هذا العالم.
- اعتبريها ألفة غريبين التقيا.
- فهذه إذن إجابة سؤالك.. وهل ينسى أحدهما الآخر بعد أن التقيا؟

ابتسم بسعادة وهو يتأمل ملامحها، فعادت تهرب منه ببصرها في اضطراب.. فسألها ليخرجها من حرجها:

- أي طريق إذن؟
- (حائرةً) ماذا تعني؟
- قلتِ إنني دلَلْتكِ على الطريق.. فأي طريق؟

- (مبتسمة) آه.. القراءة.. انتابني الفضول لأعرف ماذا ترى في كتب التاريخ فجربت قراءة بعـضها.. واكتـشفت أن الكتاب صديقي المفضل، الذي يفهمني أكثر، فشرعت أقرأ في مجالات ثقافية أخرى، واستمتعت بقـراءة الروايـات والأدب، واستمتعت أكثر بالقراءة في تبسيط العلوم وتاريخ العلم.. ومع متعة كل كتاب قرأته، كنت أشعر بالامتنان لك وأشكرك بالغيب على هذه النصيحة الغالية التي نـصحتني بها ضمنيا دون أن تعظني مباشرة.
- (ضاحكا) المراهقون لا يحبون الوعظ ولا تلقي الأوامـر.. في الغالب يتمردون على ذلك، باعتباره تدخلا سافرا فـي خصوصياتهم وكبتا لحرياتهم، ومحاولة لتشكيل شخصياتهم على عكس هواهم.. كما أن الخبرات المعلبة الجامدة تفقدهم متعة استكشاف العالم بأنفسهم، ويرون أنها موضات قديمة يفرضها عليهم جيل لا يواكب العصر.. لا أعني بهذا ترك الحبل لهم على الغارب، لكنْ مصادقتهم وإعادة استكـشاف عالمهم معهم، فهذا يجعل المراهق أكثر رضـا، ويجعـل مرشده يستمتع بعيش شبابه معه مرة أخرى.

- صدقت.. لا شيء يؤثّر في الإنسان أكثر من فكرة يشعر أنه استنتجها بنفسه وأراد تجربتها واستمتع بتحقيقها، تحت مظلة من تشجيع وثقة إنسان يفهمه.. فهمت هذا عمليا وأنا أتذكر كلامك عن دروس التاريخ وعِبَرِه، فحينما تستكشفها بنفسك من روايات مؤرخين مختلفة، يكون لها قيمة وفائدة، وتنشّط الذهن وتريه التاريخ حيا في أحداث الواقع.. وهذا طبعا على عكس فقرة "الدروس المستفادة" في مناهج التاريخ المدرسية المملة!
- (تنهد محبطا) وأي ملل.. إنهم يدرسون التاريخ كمادة محفوظات، لإنتاج أجيال كمثل الحمار يحمل أسفارا.. مع أن الأحرى أن يدرّسوه على أنه فرع من الرياضات والمنطق.. "بما أنّ إذن"، و"ماذا لو؟".

ابتسمت بإعجاب ولم تعقب، فبادلها الابتسام في صمت.. ثم اتسعت ابتسامتها، حتّى تحولت إلى ضحكة قصيرة، فسألها مندهشا:

- ماذا هناك؟
- (بمرح) أحسست أن هنا وعظا خفيا آخر!

- (ضاحكا) لقد كبرتِ يا هالة.. وما زلتِ أيضا أكبر من سنك.. يبدو أن أساليبي لم تعد تجدي معك!
- (بامتنان) على العكس.. عندي فضول لأجرب رؤيتك هذه.. سأعيد تلخيص بعض التاريخ بطريقة "بما أن إذن"، وطريقة "ماذا لو".. سيكون ممتعا بالتأكيد، وسأكتشف أفكارا جديدة ومفيدة، وربما أعيد خلق التاريخ برؤى أخرى واحتمالات أوسع.. شكرا لك مجددا يا عمو.
- (ممازحا) على الرُّحب والسَّعَة يا صغيرة عمو!

وضحكا معا بمرح.

***

سألته (هالة) باهتمام:

- ماذا فعلت في الحياة طوال تلك السنوات!

نزل سؤالها على (ماهر) كالصاعقة فتجهّم، وتذكر فجأة كل ما نسيه منذ أن وقعت عيناه في عينيها.

وتنهد ماهر مجيبا بتهكم مرير:

- لا شيء!
- كيف هذا؟

- لا شيء يستحق الذكر.. صرت مدرسا تقليديا يحاول ألا يكون كذلك، في مدرسة تقليدية لا تحاول أن تكون كذلك، أشرح مناهج تاريخ تقليدية تتعمد أن تكون كذلك، لتلاميذ تقليديين لا يعرفون أنهم كذلك، لأعيش حياة تقليدية أكره كونها كذلك!

ابتسمت رغما عنها، فنظر لها مستغربا.. قالت معتذرة:

- آسفة.. أعرف أنه من سوء الأدب أن أبتسم على ما تفوح به كلماتك من حزن ومرارة، ولكنها بليغة جدا ومدهشة في تلخيصها للواقع.. أنا أتعاطف معك وبالتأكيد أفهمك.. فبداخلك روح فنان لا يعرف بعد كيف يعبر عن نفسه للمجتمع من حوله.
- (بدهشة) هذه أول مرة يخبرني فيها أحد بهذا.. أنا نفسي لم أفكر فيه.. لقد اعتبرت نفسي دائما مجرد طفل يحب حواديت التاريخ.. لكني لم أتخيل نفسي يوما رساما أو شاعرا أو روائيا.
- ربما ليست الألوان والكلمات أدوات تعبيرك.. ربما التاريخ والأفكار هي أدواتك المناسبة.. أنا واثقة أن تلاميذك يحبون سماع هذه الحواديت منك.

- هذا صحيح.. لكن المقرر الدراسي والدرجات التي صارت غايته الوحيدة، يحدّان من قدرتي على التحليق بالتلاميذ إلى حيث أريد.. للأسف لا أرى نفسي مدرسا ناجحا وإن رأوني كذلك بمقاييسهم.
- تبدو دائما كأنما ينقصك شيء ما.
- ينقصني الكثير من الأشياء.. (ونظر في عينيها وهو يضغط حروفه) أهمها شخص يفهمني.
- (هربت منه ببصرها) وهل سيحل وجوده مشاكلك؟
- الغربة معه أفضل من الغربة وحدي.. حينما نجد من يفهموننا تهون مشاق الطريق، ونستأنس به في وحشتنا، ويحذرنا من الزلل ويقيل عثرتنا.

ترددت لحظة قبل أن تسأله بتهيب وهي تتحاشى النظر في عينيه:

- هل تخبرني أنك لم تجد شخصا كهذا بعد؟
- وجدته مرة منذ فترة بعيدة، ثم أخفته عني الأقدار.

ابتسمت بارتباك، فسألها:

- وأنتِ؟
- أنا؟!
- هل وجدتِه؟

- حاول بعض زملائي التقرب مني، لكن لم أر فيهم ما أبحث عنه.. وعلى أي حال، ما زالت صاحباتي يرينني غريبة الأطوار، فحبي الأول هو المعرفة.. وهذا ينطبق على زملائي الشباب أيضا، فما إن يظن أحدهم أنه بالبراعة الكافية ليوقعني في شباكه، حتّى أمزق هذه الشباك الواهية ببعض الحوارات الجادة التي تكشف له مقدار ضحالته الفكرية والثقافية!
- (ضاحكا) يبدو أنك معقدة فعلا كما يقولون!
- (ضحكت ببساطة) أراحني أن يعتبروني كذلك، ليتركني العابثون في حالي.

واتسعت ضحكتها قبل أن تردف:

- ذات مرة سألت أحد الشباب المبالغين في التأنق والتباهي سؤالا مخيفا كاد يفقده وعيه!
- (بفضول) أي سؤال؟
- سألتُه: إذا فقدتَ حواسك الخمس كلها يوما فهل تظل حيا؟.. وما قيمة الحياة بالنسبة لك حينها إذن؟
- (مفكرا) سؤال مخيف فعلا.. (وضحك) وشاب مسكين فعلا!

- فهل تعتبرني مثلهم مجنونة؟
- (بلا تردد) لا.. أبدا.
- فلو سألتك هذا السؤال فبم تجيب؟
- (بعد لحظة تفكير) لو فقد إنسان كل هذه الحواس فستنقطع صلته تماما بالعالم الخارجي، ولن يظلّ حيا إلا إن وجد من يرعى جسده ويحافظ على حياته.. في هذه الحالة أتخيل أن عقله سيبدأ في صنع عالم داخلي كامل، يعوض فقدان العالم الخارجي.. عالم هو مزيج من الأحلام والذكريات والرؤى.. عالم يهيمن عليه الروح والضمير والخيال، وينفلت فيه نصف المخ الأيمن من قبضة نصفه الأيسر.. ساعتها قد يبدع هذا الإنسان أشياء لم تخطر على بال فنان أو أديب أو عالم أو صوفي، فعالمه الداخلي سيكون في أصفى حالاته بعد انقطاع شوشرة المادة عنه.

وسألها باهتمام:

- ما رأيك في هذه الإجابة؟
- (بإعجاب) ومنذ متى تقيّم التلميذة أستاذها؟
- أسألك الصدق.

- وقد قلتُه لك.. ألم تكن مَن حدثتني يوما عن عوالمَ أخـــرى غير عالم المادة؟.. عوالم العقل والروح والخيال؟
- هل ما زلت تذكرين؟
- سبق أن أجبتك: لا ينسى أستاذَه إلا تلميذٌ جاحد.. ولا ينسى دروسَه إلا تلميذٌ بليد!.. فهل تراني منهما؟
- بالطبع لا.. لكن، إلامَ كنت ترمين من وراء سؤال كهذا؟
- هو سؤال صادم للذين لا يعرفون من العالم غير ما ترصده حواسهم.. لو كانوا يعلمون أي شيء آخر، لكـــان أول مـــا يتبادر إلى أذهانهم عند افتراض ذهاب حواسهم، ولأجابوني به.
- واضح أنك تلميذة نجيبة.. بالمناسبة: ماذا تدرسين الآن؟
- صيدلة.

هزّ رأسه متفهما، فسألته باهتمام:

- قلتَ شيئا عن النصف الأيمن والأيسر من المخ.. أعرف أن المخ الأيسر يهيمن على النصف الأيمن من المخ عند معظم البشر (والعكس فيمن يستخدمون يدهم اليـــسرى).. هـــذه معلومة طبية، لكني استشففت أنك ترمي من ورائهـــا إلـــى مغزى فلسفي لا تمنحه لي الكتب الطبية.

- صدقت يا تلميذتي النجيبة.. يقول (كولن ويلسون) إننا نعيش حيواتنا محصورين في الزمان والمكان والضروريات التافهة للحياة اليومية، وما الوعي أساسا إلا وسيلة لإدراك ما يدور حولنا.. ولكن يبدو أن الشعراء والمتصوفة قادرون على استخدامه لغرض آخر مختلف تمام الاختلاف، هو تنمية نوع من العالم الباطني، قوته تنافس قوة الواقع الفيزيائي المحيط بنا.. ويقول أيضا إن الشخص الذي يستجيب للمؤثرات الخارقة للطبيعة ما هو إلا نمط آخر من الشعراء: شخص ليس العالم الفيزيائي بالنسبة له سوى وجه واحد من الواقع متعدد الوجوه.

وصمت ليتركها تتأمل في كلماته، فابتسمت قائلة:

- لا يختلف كلامه كثيرا عما قلتَه لي منذ سبع سنوات.. ألم أقل لك إن بداخلك روح فنان "العالم الفيزيائي بالنسبة له ليس سوى وجه واحد من الواقع"؟.. أنا واثقة أنك لم تقرأ لكولن ويلسون قبل لقائنا الأول، وأنك كنت من أولئك المتصوفة والشعراء الهائمين خارج عالم المادة، الذين اكتشفوا هذه الحقيقة بأنفسهم.

ابتسم مجيبا:

- هذا صحيح.

ثم قال بضراعة تمثيلية مرحة:

- لكن أتوسل إليك ألا تعلني هذا علـــى المـــلأ، لأن مـــصير هؤلاء في هذا المجتمع هو ارتداء قميص الأكتاف والاقتياد إلى مستشفى المجانين!
- (ضاحكة) لا تقلق.. فأنا مثلك تماما ولا يمكـــن أن أشـــي بنفسي.. أنا مجنونة فعلا، لكن ليس إلى هذه الدرجة!

وضحكا معا بمرح!

***

(٤)

عالم أرحب

سألته (هالة) بجدية:

- لم أفهم بعد ما علاقة كلام (كولن ويلسون) بنصفي المخ؟

أجابها (ماهر):

- يصل ويلسون في مقاله "الزمن نهبا للفوضى"[1]، إلى استنتاج غريب مفاده أن القوى النفسية أو القدرات الخارقة لدى بعض البشر تنطوي على انهيار أو فقدان للكفاءة في قواهم العقلية السوية.. ويضرب المثل بمن سماهم العلماء البلهاء، أو أرى أنا شبيها لهم في الأطفال المرضى بالتوحد، الذين يبدون عاجزين عن التواصل اجتماعيا، لكنهم يستطيعون إجراء عمليات حسابية معقدة بسرعة

[1] مقال "الزمان نهبا للفوضى"، هو عنوان الفصل السابع من كتاب "فكرة الزمن عبر التاريخ" وهو كتاب يجمع بين الفسلسفة والتاريخي والأدب والعلم، كتبه مؤلفون متعددون، وهو مترجم ومنشور ضمن سلسلة "عالم المعرفة"، العدد ١٥٩.

تفوق أحدث الحاسبات!.. ولعل هذا هو ما يحدث بنسبة أخف مع الشعراء والأدباء والمبدعين والعلماء العباقرة، الذين يعانون من تدني قدراتهم على الاندماج في المجتمع، لكنهم يمتلكون مقدرة أكبر على التعبير عنه، أو خلق عوالم بديلة له، أو اختراع أدوات تساعد هذا المجتمع على حل مشاكله.. من وجهة نظري قد يكون عجزهم عن الاندماج هو الذي جعلهم يسعون ــ كلّ بأدواته ــ إلى إيجاد علاج لمشاكل المجتمع.. لكنّ ويلسون يرى أن احتجابهم عن العالم المادي هو الذي أتاح لعقولهم الصفاء الكافي لتبدع وتبتكر.

- إممم.. أنت ترى أن للعزلة تأثيرا نفسيا يدفعم للبحث عن تعويض، وهو يرى أن العزلة تمنحهم الطاقة العقلية الكاملة للإبداع.. كلاكما على حق بالتأكيد.
- هذا صحيح.. لكن ويلسون يرى أن عقولنا جميعا تمتلك قوى خارقة، لكن معظمنا لا يرون سببا يدفعهم لاستخدامها على الإطلاق، لأنهم مشغولون بصراع البقاء، وهذا يجعلهم مقيدين بالعالم اليومي.. ولولا هذا لكنا جميعا عباقرة أو أصحاب شفافية نفسية أو من الأدباء والفنانين.

- كلامه منطقي.. فكلنا يعلم طبيا أن الإنسان لا يستخدم أكثر من ١٠% من قدرات مخه، وتزيد هذه النسبة قليلا عند العباقرة والمبدعين، لكن تظل معظم قدرات أمخاخنا خاملة وتمر أعمارنا دون أن نستخدمها!
- بالضبط.. وقد استدل بالمقولة الساخرة لتشسترتون: "لماذا يمتلئ العالم بالأطفال اللامعين والكبار الأغبياء؟!".. والسبب الذي رآه ويلسون هو أن معظم إمكاناتنا المهمة تفشل في البقاء بعد فترة المراهقة، لأن المجتمع يكبح جماحنا ويبرمجنا على استخدام كسرة صغيرة من قوانا العقلية.. وهو يرى أن شعورنا اليومي محدود، لكن في حالات السعادة العظمى أو الارتياح أو حين نستغرق في مغامرة مثيرة، فإننا نتلقى حدسا واضحا بأن العالم أكثر ثراء إلى مالا نهاية، وبأنه مكان أشد تعقيدا بأكثر مما يسمح لنا شعورنا العادي بإدراكه.
- كل هذا جميل.. ما علاقته بنصفي المخ إذن؟
- يرى كولن ويلسون في نصفي المخ الإجابة عن كيفية إجراء بعض عباقرة الرياضيات لتلك الحسابات المعقدة في الحال.. فهو يرى أن كلا منا يملك هذه القدرات الخارقة،

فالمخ البشري أعقد من أحدث الحواسيب الحديثة بمليارات المرات.. لكن المشكلة أنّ هناك شخصين يعيشان معا في جسد كل منا.. شخص عالم يتحكم فيه النصف الأيسر من المخ المسئول عن اللغة والمنطق والعقل، وشخص فنان يتحكم فيه النصف الأيمن من المخ المسئول عن التعرف والتمييز والتذوق الفني.. ويتواصل النصفان معا عبر الألياف العصبية، لكن الكلمة العليا تكون للنصف الأيسر من المخ، لهذا يسكن "أنا" كل منا ــ الذي تعبر عنه أفكارنا ولغتنا وتصرفاتنا الواعية ــ في النصف الأيسر، لكن هناك "أنا" أخرى على بعد سنتيمترات قليلة في النصف الأيمن، ولكنها صامتة!

وصمت ليترك لها استيعاب هذه الفكرة، فلم تلبث أن ابتسمت وقالت بحماس:

- يا له من تأمل.. هذا يفسر الصراع الداخلي بين الذات البالغة العاقلة الديكتاتورية المهيمنة في النصف الأيسر، والذات الطفولية المراهقة الفنانة المتمردة على قواعد المجتمع والمكبوتة في النصف الأيمن.

- نعم.. أنتِ أسقطتِ ذلك على الصراع النفسي، وويلسون أسقطه على كبت القدرات الحسابية الخارقة للمخ.. فعندما يُجرى الإنسان عملية حسابية على الورق فإنه يستخدم نصف مخه الأيسر، مع قسط قليل من معونة النصف الأيمن التي يقدمها بين حين وآخر في صورة استبصارات مفاجئة أو عمليات حسابية سريعة.. فالنصف الأيسر هو "الإنسان الأمامي" أو الأنا التي تتعامل مع العالم.. والنصف الأيمن لا يستطيع أن يعبر عن نفسه للعالم الخارجي إلا عن طريق النصف الأيسر ــ لهذا يجد عناء شديدا في أداء وظيفته، لأن النصف الأيسر في عجلة دائما من أمره، ومشغول بالعالم المادي وصراعاته ومعالجة مشكلاته، لهذا يميل إلى معاملة النصف الأيمن في شيء من نفاد الصبر.. لهذا لا يملك الإنسان العصري من الحدس والبصيرة إلا القليل.
- (متأملة وعيناها تشعان بريقا) فهمت هذه النقطة.. هو يعني أن الفراسة والحدس والبصيرة، هي ملاحظات دقيقة يجمعها النصف الأيمن من المخ عن العالم المحيط لأنه ينتبه لكل التفاصيل، لكنه لا يستطيع أن يوصلها إلى وعي

كل منا لأن النصف الأيسر يبدو كأنه مخمور بمشاكل الواقع المادي ورغباته.. وحينما يفيق لحظة، تتضح فجأة في ذهنه بعض الحقائق التي لا يعلم من أين جاءت، فيبدو كأن الإلهام هبط على هذا الإنسان بغتة!

- تأمل جيد.. وهذا نفس ما يحدث مع عباقرة الحسابات الرياضية، إذ يبدو أن النصف الأيمن من أمخاخهم يحل المسألة بسرعة خارقة، ولا يعوقهم النصف الأيسر لسبب ما عن إدراك الحل والتعبير عنه.. لكن كما سبق أن أشرت، فإن انتباه النصف الأيسر لعالمه الداخلي، يأتي على حساب عدم قدرته على الاندماج بالعالم الخارجي.. وفي حياة كل منا، ينجح النصف الأيمن من المخ في أن يعبر عن نفسه بين فينة وأخرى.. مثلا حينما يشرد نصفنا الأيسر ونحن نقود السيارة أو نلعب لعبة فديو، لكن النصف الأيمن يظل يؤدي المهمة بدقة، فإذا أفقنا تعجبنا كيف وصلنا وجهتنا أو أنهينا اللعبة ببراعة بدون تركيز، مع أننا كنا نفشل فيها ونحن في قمة التركيز!.. فهذا النصف الأيسر غارق في القوانين والأعراف وكلمات اللغة ومواقيت الزمن، ليؤدي الدور المطلوب من الإنسان

اجتماعيا، لكنه بحكم هذا التدريب، يعيق النصف الأيمن عن التعبير عن قدراته الأكبر، وعوالمه الأرحب من اللغة، التي يغرف الشعراء قطرات من بحورها في إبداعهم، وزمنه الأبدي الذي يجعلنا في لحظة شرود تحسب الثواني أو الدقائق، نعيش خيالات طويلة كأنها الساعات.

- يا للروعة.. نسبية الزمان بداخلنا.. النصف الأيسر يحسب الزمان ببطء حركة الشمس في السماء، بينما النصف الأيمن يتعامل بالفمتو ثانية وأسرع!
- نعم.. يرى كولن ويلسون أن الزمان مفهوم اخترعه النصف الأيسر، وأن الكون لا يعرف إلا ما أطلق عليه الفيلسوف وايتهد اسم السيرورة Process أي تعاقب الأحداث والظواهر المنتظمة والمتصلة.. وما يسميه البشر بالزمان ليس إلا مفهوما نفسيا اخترعه النصف الأيسر لتأريخ الأحداث ورصد إيقاع الظواهر المادية اللازمة لبقاء الإنسان، كالفصول المناخية ومواسم الزراعية وغيرها.
- الآن فهمت مغزى كلامك عن تألق النصف الأيمن إذا ذهبت الحواس.. فحينها لن يجد النصف الأيسر شيئا يشغله عن الجلوس إلى النصف الأيمن والاستماع إليه، بكل ما

لديه من عوالم لا نهائية من الخيال، وأعمار ممتدة من الزمان تمددت فيها كل ثانية مليارات المرات بسبب سرعة المخ، حيث ينكشف الغطاء عن بصيرة النصف الأيمن فيحكي كل أسراره وملاحظاته وتأملاته واستبصاراته وابتكاراته وإبداعاته.. لعل هذا ما يحدث لنا في أول لحظات الموت، حينما تخرج الروح من الجسد، فينكشف عنها غطاء العالم المادي، ويصير بصرها حديدا فترى العوالم الأخرى التي كانت محجوبة عنها.

- تعجبني إشارتك للغطاء.. يرى كولسن أن الكد الذهني والانهماك في متطلبات العالم المادي دون فترات استرخاء وتأمل وتصالح روحي، يمكن أن يولد الحالة التي سماها سارتر بالغثيان، أي الحالة التي يستعرض فيها المخ الأيسر العالم مع افتقاره لكل بصيرة عن معناه.. هنا يكون المخ الأيمن قد تخلى عن مهمته: فيبدو الواقع فجا خاليا من المعنى.

- نعم.. كما قلت أنت لي أول مرة: بدون المبدعين والعلماء ورجال الدين، سيبدو العالم المادي للناس خانقا مملا فاقدا للمعنى ودهشة الاكتشاف.. وعلى الناحية الأخرى، قد

يهرب البعض من العالم المادي إلأى الخمور والمخـــدرات لقمع الوعي، فيغسب عنهم الشعور بالزمن، ويشعرون بمتع وهمية تبدو كأنها تمتد لساعات طويلة وهي مجرد دقـــائق، لهذا كان كثير من الشعراء يشربون الخمر قبل أن يكتبوا، ويقال إن بعض المتصوفة كانوا يشربون الحشيش ليصلوا إلى تلك الحالة من الوجد الـــصوفي بلغتـــه القريبـــة مـــن الهذيان، وربما كان استخدامهم للطبول وهز الرأس بـــنفس الحركة الرتيبة نوعا من التنويم المغناطيسي للوصول إلـــى نفس الحالة من الخدر والغيبوبة عن الوعي.. لكن كل هذه الممارسات ضارة، لأنها تدمر الجسد والعقل.. لعل النصف الأيسر محق في النهاية في استبداده، لأنه يحـــاول حمايـــة الوجود المادي للإنسان في المقام الأول.

- هذا صحيح.. وربما لهذا لجأ فلاسفة وكهنة الـــشرق إلـــى ممارسات روحية أخرى للوصول إلى هذه الحالة، كاليوجا والنيرفانا، مع الحياة بين الطبيعة وقلة الطعـــام وحرمـــان الجسد من شهواته.. وهو نوع من التطرف على الجانـــب الآخر.. لكن من الواضح أن كل هؤلاء يربط بينهم الرغبة في قمع الوعي، للغوص إلى العالم الآخر الذي يمنعهم عن

الوصول إليه نصفهم الأيسر.. لهذا يقول ويلسن في ذروة فكرته: إن المخ الأيمن هو الذي يعرض علينا الحقيقة والواقع بينما لا يعرض علينا المخ الأيسر إلا الظواهر الآنية، أي ما يحدث هنا والآن.. فالمخ الأيسر يتفحص العالم بدقة لكن المخ الأيمن هو الذي يُضفي عليه المعنى والقيمة.

- وهذا معناه أن الذين يعيشون بنصف مخهم الأيسر فقط، هم في الحقيقة آلات صماء تنفذ برمجة مسبقة، وليس لها أي رأي أو إضافة حقيقة للحياة، لأنها لا تفهمها أصلا.. مدهش.
- نعم.. يقول القديس أوغسطين: "عندما لا أسأل السؤال، فأنا أعرف الإجابة!".. فما بالك بمن يغرقون في مستنقع الاسئلة الخاطئة عن كم يمتلكون وكيف يزيدونه ولماذا يمتلك غيرهم أكثر منهم؟.. إنهم محجوبون عن سماء الحقيقة في هوة سحيقة.
- تذكر الآن شيئا قرأته لدكتور مصطفى محمود قريبا من هذا.. يقول إن الأهواء والشهوات التي تسيطر على الكل تعطل التفكير، وتصنع مناخا عاما من الغفلة، واقتناعا وقتيا

بأن هذه الدنيا هي كل شيء.. ويظل الكل سادرا في الغفلة حتى تأتي لحظة الموت ولا تعود هناك رجعة.. وما أقرب الموت منا جميعا.

- نعم.. لهذا فإن الإسلام يقدم وسطا بين فلسفات الغرب المغرقة في المادية والشهوانية، وبين فلسفات الشرق المغرقة في الروحية والزهد.. (وكذلك جعلناكم أمة وسطا).. فهو يقدر الجسد ورغباته، والروح وتطلعاتها، ويعلي من قيمة العقل في الفهم والإدارك، لكنه يلفت انتباهه إلى التفكير فيما وراء كل ظواهر العالم المادي وأخذها آيات للتفكر في بديع صنع الله، ويذكره دائما بالاستعداد للعبور إلى عالم الآخرة بعيدا عن كل هذا المتاع الزائل، ويحذره من الاستسلام لكل رغبات النفس لكن مع عدم حرمانها أيضا.. فلا إفراط ولا تفريط.

تفكرت لحظة، ثم ابتسمت قائلة بامتنان:

- شكرا لك يا عمو.
- علامَهْ؟
- لقد أوضحت لي مجددا إجابة الكثير من الأسئلة التي كانت تحيرني.

- وشكرا لك مجددا يا (هالة).
- علامَهْ؟
- لقد أعدتِ لي مرة أخرى الثقة بعقول النساء!

***

سألها (ماهر) متعجبا:

- لكنكِ لم تسأليني من هو كولن ويلسون؟!

أجابته (هالة) مبتسمة:

- عندي فكرة عنه يا أستاذي.. سبع سنوات من القراءة، أمضيت نصفها في الوسط الجامعي، مع مشاهدة القنوات الفضائية الوثائقية واستخدام الإنترنت، لا ريب أنها منحتني بعض المعلومات.

هز رأسه وهو يرمقها بإعجاب، فسألته بحذر:

- لكني مندهشة أنك تقرأ له!.. كتابه "اللا منتمي" مفضل لدى الملحدين ويصنّف على أنه كتاب وجودي.. فهو وإن كان مغرما بعوالم الروح للهروب من عالم المادة، يقول "إن اللامنتمي يفضل ألا يؤمن ولا يريد أن يشعر بتلك التفاهة تتحكم بالكون"!!.. وبسبب كلامه عن ظواهر ما وراء

الطبيعة وقصص السحر والعرّافين، صنّفه كثير من نقـــاد الغرب على أنه مشعوذ!!

- إعجابي ببعض أفكار كاتب، لا يعني بالضرورة مـــوافقتي على كل أفكاره.. وما لخصته لك من أفكار أعجبتني فـــي مقاله "الزمن نهبا للفوضى" ليس كل المقال، فقد نبذت منـــه كل حديثه عن القدرات النفسية وظواهر ما وراء الطبيعـــة والتنبؤ بالمستقبل، وأخذت منه فقط الأفكار التي لها أساس علمي.. لست مغرما بقراءة الفلسفة المجردة، وأي شـــيء يعارض العلم والدين ألفظه في الحال.. ثـــم لا تنـــسَيْ أن كثيرا من علماء الغرب ومفكريه ملحـــدون منـــذ انتـــشار نظرية داروين[٢] في الأوساط العلمية والفكرية، فهل يعنـــي هذا التوقف عن قراءة جميع كتب الغربيين؟

- بالطبع لا.

- لقد ذكرتِني بنقطة هامة.. من العجيب أن جميـــع علمـــاء الغرب تقريبا يطعنون في نظرية داروين بصورة خفية في كتاباتهم، لكن لا يجرؤ أكثرهم على إعلان رفـــضهم لهـــا صراحة.. وفي نفس مقال ويلسن هذا مهد للكلام عن المخ

---

[2] أقرأ كتاب "خرافة داروين.. حينما تتحول الصدفة إلى علم".

بجملة عجيبة يشبّه فيه المخ بحاسب آلي فذ ويتعجب من أن قدرة هذا الحاسب تفوق بمراحل كبيرة القدرة اللازمة لبقاء الإنسان في الحياة من منظور التطور الـداروني، ويـرى مثلا أننا لا نستخدم تلك المكتبة الواسـعة مـن "شـرائط الذاكرة" التي يملكها المخ ويـسجل فيهـا كـل ذكرياتنـا بالصوت والصورة والرائحة والطعم والملمس والعاطفـة، فلسنا بحاجة إلى استخدامها للبقاء اليومي الذي يرى داروين أنه أساس تطور كل جزء في كل كائن حـي.. ويتـساءل كولن ويلسون: فلماذا إذن توجد هذه الـشرائط؟.. ولمـاذا قضى التطور بأنه على المخ أن يتذكر كل حادثة صـغيرة للغاية وكل فكرة عبرت بحياتنا؟

هزت رأسها موافقة، وعقّبت:

- يبدو فعلا كأنه ينثر شكوكه حول الداروينية، لكن لا يجرؤ على الاعتراف بهذا علنا!

تذكر شيئا فسألها:

- وأنتِ هل تؤمنين بكل ما قاله د. مصطفى محمود؟

أدركت مغزاه، فابتسمت قائلة:

- بالتأكيد لا.. كل إنسان يؤخذ منه ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. يوجد الكثير مما أعترض على د. مصطفى محمود فيه.. وخجلت من قراءة كثير من أعماله الأدبية، لكني من عشاق حلقات العلم والإيمان وجمعت الكثير منها من الإنترنت.
- لقد ظل د. مصطفى يثير اللغط طيلة حياته، منذ أن احتفى النقاد الماركسيون بكتابه الأول الذي حجبه الأزهر، ثم انقلبوا عليه بعد كتبه التي بدأت تأخذ طابعا إسلاميا مثل "حوار مع صديقي الملحد"، حتّى إنه بدأ يهاجم الماركسيين في كتبه مثل "لماذا رفضت الماركسية"، ثم استعدى عليه النظام بكتاباته السياسية في التسعينيات مثل كتاب "الإسلام في خندق"، ثم استعدى الإسلاميين في مطلع الألفية الجديدة حينما أنكر الشفاعة، مقتطعا من القرآن الكريم كل الآيات التي تنكرها، دون أن يذكر الآيات التي تؤكدها مثل (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)، وبعد الهجوم الضاري عليه بدأ يتراجع قليلا ويفسر كلامه على أنه يرفض اتكال العصاة على أمل الشفاعة.. هو نفسه قال لقرائه كثيرا إن الفكر كائن حي، والكاتب ليس شيئا جامدا ولا ينبغي أن يكون،

وإنه لا يرى حرجا في الاعتراف بأخطائه وتغيير أفكاره تبعا لما يراه الصواب والحق.

- فهمت مقصدك وأنت على حق تماما.. وربما لهذا لم أنضم لأي تيار من التيارات التي تموج بها الجامعة.. فكل منها منغلق على أفكاره ومصادره، ويرى أنه على الحق المطلق وغيره على الباطل المطلق.. هذا التعصب الذي يُشيع الإعلام أنه موجود لدى الإسلاميين فقط، رأيته أكثر حدة عند العلمانيين.. هناك نوع من الجمود والانغلاق الفكري والتعصب العامّ في هذا المجتمع، حتّى عند من يسمون أنفسهم مثقفين ويقرأون بعض الكتب.. ربما كان هذا هو نوع الانتماء الذي ثار عليه ويلسون في النهاية: التعصب المنغلق والانسياق وراء سلوك القطيع.

- لا أدري حقيقة ما كان يرمي إليه فلم أقرأ أكثر من مقتطفات من الكتاب.. لكنه عامةً كتبه في منتصف الخمسينيات، أي أنه كان من الجيل الذي نشأ بعد الحرب العالمية الثانية، بكل ما حدث فيها من فظائع وأهوال.. هذا الجيل ثار على المجتمع والمنظومة الحضارية والعقل والدين، وألقى بمسئولية هذا الدمار على الأجيال السابقة له

بكل أفكارها وقيمها.. لمثل هذا انتعشت في الستينات الأفكار الوجودية والعبثية والفوضوية وظهر الهيبز ودعاة الثورة الحضارية، وهو شبيه بما حدث أيضا بعد الحرب العالمية الأولى مثل ظهور المدرسة السريالية في الفن والأدب.. خراب بهذا الحجم يصدم النصف الأيسر من المخ، ويشككه في جدوى الوعي والعقل، ويجعل النصف الأيمن يرقص رقصات مجنونة على أطلال العالم المادي المنهار!.. لكن المجتمع يجد طريقة للاتزان بمرور الوقت، ويلفظ التطرف إلى أيّ من النقيضين: الجمود المادي، والعبث الفوضوي.

هزت رأسها موافقة، وقالت:

- هذا درس آخر أتعلمه منك.. سأنوع قراءاتي، لكن بعين نقّادة، فالحكمة ضالة المؤمن، وأنَّى وجدها كان أولى بها.
- نعم.. لكن مع الحذر.. فبالتأكيد رأيتِ كيف يجد كل تيار فكري في شباب الجامعة تربة خصبة لزرع أفكاره، فالتعصب لأول فكرة هو دَيْدَن أصحاب العقول الفارغة.. وهناك اليومَ تراكم معرفي هائل من الكتب والأفكار عبر التاريخ، ومن السهل برمجة عقل أي شاب ببعض الكتب

التي تريه الدنيا الواسعة من ثقب إبـــرة، تمامـــا كـــشخص محبوس في غرفة لا يعرف ما خارجها، وينظر للخـــارج عبر ثقب صغير في أحد جدرانها.. كل أيدلوجية تقدم نفسها على أنها هذا الثقب، وتؤكد لأتباعها أن العالم هو ما يرونه عبره، وأن أي ثقب آخر في أي جدار آخر هو ثقب فـــي الموضع الخاطئ والعالم الذي يعرضه عالم مزيف!.. وكل أيدلوجية تبدأ بمقدمات صحيحة مبنية على نقد أخطاء الواقع وعيوب المجتمع، ثم تنطلق منها إلى اســـتنتاجات بعـــضها صحيح ومعظمها خاطئ ومغلوط.. فإذا كانـــت المقـــدمات الخاطئة تقود بالضرورة إلى استنتاجات خاطئة، فـــالعكس ليس دائما صحيحا، وكثيرا ما يستخدم المدلّسون مقـــدمات صحيحة، ثم يقفزون منها إلى استنتاجات خاطئة باســـتخدام المغالطة والتكذب والتضليل واستغلال جهل السامع.. لهذا يجب أن يتسلح الإنسان أولا بكثير من الحقـــائق قبـــل أن يغرق في وجهات النظر والآراء والأفكار والفلسفات.. هذه الحقائق تأتي من العلم والدين والتاريخ والأعراف الحميـــدة التي اكتسبتها المجتمعات بالتجربـــة والخطـــأ عبـــر آلاف السنين، فهذه الممارسة المجتمعية جزء من المنهج العلمـــي

التجريبي، حتّى وإن وصمها من يدعون أنفسهم بـــالمثقفين بأنها عادات بليدة ورجعية.

- ولكن بعضها كذلك فعلا!
- صحيح.. وهم يستخدمون هذا البعض كمقدمات صـــحيحة، للقفز منها إلى تعميم نتائج خاطئة.. لهـــذا قلـــتُ العـــادات الحميدة.. فكل شيء يخالف الدين والعلم والفطرة ويـــؤذي الإنسان هو مرفوض.. مثل التدخين مهما كثر مـــدمنوه.. ومثل تعقيد متطلبات الزواج وما شابه.

فكرت لحظة وقالت:

- لعلك تعني الأخذ بمبادئ المجتمع الأخلاقية ونبـــذ أعرافـــه المادية.
- ليس بالضبط.. فقد لا تعيب الأعراف بعض الأخلاق رغم أنها محرّمة دينيا، وقد تكـــون بعـــض المعـــايير الماديـــة ضرورية مثلا لإثبات جدارة الـــشاب بتحمـــل المـــسئولية وإشعاره بأن الزواج ليس لعبة.. لكن المبالغة في هذا إلـــى درجة تعطيل الزواج نفسه وإشاعة الفاحشة في المجتمـــع، هو أمر يجب التصدي له.
- نعم.. ما زاد عن حده انقلب إلى ضده.

***

(٥)

حكم القدر

أثار نقاش الزواج هاجسا في نفس (هالة)، فترددت لحظة قبـــل أن تسأله:

- وأنت يا عمو.. هل..؟!
- ماذا؟
- هل لديك أولاد؟

أجابها (ماهر) بغصة مريرة:

- كلّمتُكِ عن غريب يبحث عمن يفهمه.
- هذا لا يجيب عن السؤال.. عدم عثورك عليه لا يعني أنك لم تتزوج، خاصة أنك تقترب من الثلاثين.
- جميل أنك تتفهّمين هذا!

نظرت له بتوجس، وانتبهت لأول مرة أنه يخفي أصابع يديه فـــي جيبي سترته منذ جلست قبالته، فسألته بقلق:

- أتفهّم ماذا؟

زفر قائلا بمرارة:

- اضطررتُ إلى القبول بشريكة حياة معقولة.

شحب وجهها، وهي تسأله مبهوتة:

- تعني أنك تزوجت؟

أخرج يده اليمنى ورفعها أمامها ليريها الدُبلة مجيبا:

- على وشك.

حاولت اصطناع ابتسامة وهي تقول بخفوت:

- مبروك.

همهم بكلمات لا معنى لها، وساد صمت ثقيل لم يقطعه إلا رنين هاتفها المحمول، فأخرجته من حقيقبتها بشرود، وفتحت الخط لتنصت لمحدثها لحظة قبل أن تقول:

- لا تقلقي يا أمي.. أوشكت على الوصول.

وأنهت الاتصال ليعود الصمت يهيمن عليهما.

كان يود سؤالها أكثر عن نفسها وأي شيء يضمن وصوله إليها بعد ذلك، أو يطلب منها رقم هاتفها أو أي شيء.. لكن حقيقة أنه مرتبط بامرأة أخرى ألجمت لسانه، وأشعرته أن سؤاله سيكون عبثيا بلا مغزى.

انتبه إلى أن القطار يخفّف من سرعته وهو يقترب من إحدى المحطات، وانخلع قلبه حينما تذكر أنها نفس المحطة التي نزلت فيها سابقا.

ورآها (ماهر) مذعورا تنهض من مقعدها، واكتشف أنها ستمضي مجددا دون أن يعرف حتى اسمها كاملا أو أي شيء يُعينه على الوصول إليها لاحقا.. فهمّ بسؤالها رغما عن كل شيء، لكنها تمتمت بشجن:

- وداعا أيها الغريب.

وجد نفسه يسألها بلا وعي:

- ألن نلتقي ثانية.. ولو بعد أعوام؟

قالت ودمعة تترقرق في عينيها:

- لا أظن.. فحتى إن التقينا فلن أكون أنا أنا ولا أنت أنت.. حتى الغرباء يصلون يوما ما.. أليس كذلك؟

وتمتم وقبضة من جليد تعتصر قلبه:

- صدقتِ.

توقف القطار في تلك اللحظة، فتحركت مبتعدة بخطوات ملتاثة، وهي تغمغم:

- وداعا.. يا عمو.

وغادرت القطار وهو يتابعها عبر النافذة بعينين جريحتين.

لقد فقدها للمرة الثانية..

والأخيرة!

***

كانت (هالة) تسير على الرصيف بخُطًى متثاقلة، وهي تقاوم رغبة جامحة في أن تتوقف وتلتفت إلى القطار الذي ما زال في المحطة، لعلها ترى (ماهر) ولو لثواني لآخر مرة.

ولكن ما الجدوى؟.. ما الجدوى؟

- (هالة).

خفق قلبها في دهشة حينما سمعت صوته يناديها، فالتفتت بلهفة لتجده يعدو نحوها مسرعا.

وتوقف ماهر أمامها لاهثا، فكاد قلبها يثب من ضلوعها من عنف ضرباته، وعيناها معلقتان بشفتيه، تستمطر أملا مستحيلا في صحراء يأسها.

لكنه مد إليها يده بهاتفها المحمول قائلا في خفوت وعيناه لا تفارقان عينيها:

- لقد نسيتِ هذا.

تمتمت في إحباط وهي تتناوله منه:

- آه.. شكرا.

صمت وهو يلتهما بعينيه في لوعة، وغرق في الشجن العذب الذي يفيض من عينيها.

وتمنى ماهر لو تجمد الزمن دهورا عند هذه اللحظة، ومحا ذهنه كل تفاصيل المشهد، الناس والقطار والرصيف والمقاعد، وكل شيء إلا ملامحها الجميلة وعينيها الحزينتين، وحوارهما الصامت مع عينيه.

وتجمد كلاهما لحظات، عاجزين عن أن يتحركا أو ينبسا ببنت شفة، حتّى دق جرس المحطة فجأة وأطلق القطار صفيره منذرا ببدء تحركه، فأعاد عقارب الساعة إلى الحياة، وأعاد رسْم الواقع الكئيب من حولهما.

وهمهم ماهر بقلب موجوع:

- أزِف الرحيل.

وتركها عائدا إلى قطار غربته، وهي متجمدة في مكانها، وكفها تقبض على آخر قطرات الدفء الذي اكتسبه المحمول من قبضته.

***

صاحت فيها (أروى) باستنكار وهي تجلس بجوارها على طرف فراشها:

- لم تسألِيه حتّى عن اسمه الكامل؟!

سالت دمعة من عين (هالة) رغما عنها، وأطرقت، فقالت (أروى) بحدة:

- منذ أن صادقتك يا هالة وأنا على يقين من أنك مجنونـــة.. لكنّي لم أتخيل قَطُّ أن يصل بك الجنون إلى هذا الحد!

انهمرت دموع هالة غزيرة، وقد فشلت كل محاولاتها لكبحها، لكن أروى لم تشفق عليها أنْ واصلت في حنق:

- ثلاث سنوات لنا في الجامعة معا، تصدّعين فيهـــا رأســـي بكلامك عن ذلك المجهول الذي ترك بصمة لا تمحى على شخصيتك، وتتمنّين لو أنك قابلتِه مرة أخرى، حتّى أقنعتُكِ بعد لَـــأْيٍ أن تجرّبي تكرار نفس الرحلة، عـــلّ الـــصدفة تقودك إليه، وأنتِ ــ ويا لك من عاقلة ــ لا تحبـــين بنـــاء حياتك على المصادفات وكأننا نحن مـــن نكتـــب أقـــدارنا بأيدينا!

قالت هالة من بين دموعها:

- كنت خائفة ألا أقابله، فأظل أمنّي نفسي بالأوهـــام وأكـــرر رحلة القطار كل يوم.
- ولكنك قابلتِه.. ومن أول مرة.. وفي نفس عربة القطـــار، وبل في نفس المقعد تقريبا!.. مما يعني أنه كان ينتظـــرك، فالمصادفات لا يمكن أن تتكرر بهذه الدقة!

نظرت لها هالة بدهشة، وهمهمت:

- ينتظرني؟!
- ينتظرك ويذكرك وعرفك على الفور.. هل عجز عقلك الخارق عن اكتشاف هذه الحقيقة الناصعة أيتها العبقرية؟
- ولكن.. ربما...
- أيا يكن.. أيا يكن.. حدث ما حدث وقابلتِه.. فماذا فعلتِ؟.. لا شيء.. عدتِ إلى نقطة الصفر!
- (بمرارة) لقد تأخرتُ يا أروى.. كان يجب أن أسمع نصيحتك مبكرا.. لكني خفت أن تكون مجرد مشاعر مراهقة، تجعلني أخجل من نفسي، وأنا التي تنتقد دائما تفاهة الفتيات وتصرفاتهنّ التي لا تليق بطالبات جامعة ناضجات.. وخفت أكثر من ألا يتذكرني، وإن تذكرني أن يراني طفلة مراهقة تبتذل نفسها أمامه!
- المهم أنك تغلبتِ على هواجسك وأخذت خطوة، وحدثت المعجزة وقابلتِه وتذكّرك.. فكيف تتركين الفرصة تضيع من بين يديكِ هكذا ببساطة؟
- (بألم) إنه مِلك لفتاة أخرى يا أروى، وسيتزوجها قريبا!

عقدت أروى حاجبيها وهمهمت:

- يا إلهي.. يا لك من منحوسة!.. بل يا لك من مترددة!.. لو كنت سمعتِ كلامي منذ عام!

وربّــتت على كتفها بتعاطف، وهي تردف:

- قدّر الله وما شاء فعل.. دعينا مما مــضى ولنفكــر كيــف سنتصرف فيما هو آت؟
- (نظرت لها بدهشة) أيّ آت؟
- (بحدة) إننا لن نستسلم بالتأكيد.. ما زال هناك أمل.
- (بتهكم) أمل؟.. أي أمل؟!
- إنه ليس متزوجا بعد.. ليس ملكا لأخرى كما تدّعين.

نظرت لها هالة بغضب وهتفت:

- تريدين أن أحطم قلب امرأة لا ذنب لها، بسبب أنانيتي؟
- دعك من مثالياتك الخرقاء هذه.. فليتحطم قلبها أفضل مــن أن يتحطم قلبك وقلبه.. وثقي أنه لو كان يحبك كما تحبينــه فلن تتم هذه الزيجة أبدا!

توقفت دموع هالة وكررت في اندهاش:

- أحبه؟
- أجل.. ألم تعترفي لنفسك بهذا قَطُّ بعد كل هذا الوقت؟!
- (بتلعثم) أنا.. أنا فقط أردت رؤيته و....

- (بإشفاق) وماذا يا خائبة؟.. وهل يسمى هـذا إلا "شـوقا".. وهل تسمى دموعك هذه إلا "غيرة"؟.. وهل يسمى حزنـك هذا إلا "عشقا مبرّحا"؟
- (بتخاذل) ولكني لا أعرف عنه شيئا ولم أره إلا مرتين في حياتي.. لست مراهقة ساذجة لأسمّي هذا حبا!
- بل أنتِ عرفتِ عنه الكثير، وعشتِ مع فكره سنوات مـن عمرك، وفتح لك ممالك عقله وأراكِ ما بنـاه فيهـا عبـر سنوات عمره، وجعلك ملكتها المتوّجة.. لم يكن حبا بالعين والخيال من أول نظرة، بل حبا بالقلب والعقـل مـن أول لآخرة فكرة.

نظرت لها هالة مذهولة، وعجزت عن النطق أمام هـذه الحقـائق التي وضعتها أمامها أروى بهذا الوضوح الذي لم تره من قبـل، ربما مخافة أن تصارح نفسها بحقيقة مشاعرها نحو ذلك الغريب.

وهمهمت هالة وهي تنظر لأروى بدهشة:

- ماذا حدث لك؟.. من أين أتيت بهذه القدرة علـى الجـدل بغتة؟

لكزتها بيدها برفق قائلة:

- مَن عاشر القوم ثلاث سنوات صار منهم!.. الجنون يُعدي لو تعلمين!

ابتسمت هالة رغما عنها، لكنها لم تلبث أن تجهمت وقالت بشك:

- ولو.. هذه مجرد علاقة عابرة في قطار.. طفلة وشاب تحدثا وانتهى الأمر.
- انتهى الأمر؟.. مَن تحاولين الخداع يا فتاة: أنا أم أنت؟.. انظري إلى المرآة وأريني كيف تقنعين نفسك.
- لا تستفزيني يا أروى.. قلت لك إنني لا أعرف عنه سوى بعض أفكاره.. أما سلوكه وطباعه فلا.
- (بمكر) حسن حسن.. أنا مقتنعة.. مقتنعة جدا.. أنت لا تحبينه، وليست لدينا أي مشكلة.. فلننس الموضوع إذن.

رمقتها هالة بنظرة حانقة لحظة، قبل أن تنفجر في البكاء صائحة:

- تبا لك.. أنا أحبه.. أحبه كما لم أحب أحدا من قبل قَط، ولم أرَ في الرجال غيره.. إنه حلم طفولتي ومراهقتي وشبابي، وقد ضاع.. ضاع للأبد!

واحتضنتها أروى مواسية، وهي تتنهد في إشفاق.

***

(٦)

مفاجأة

"**حظّك اليوم:**

تقابلين غريبا تبحثين عنه منذ سنين، وتتركين قلبك معه في حقيبة سفر، وترحلين".

طالعت (هالة) من بين دموعها هذه الرسالة الدعائية على هاتفها المحمول، قبل أن تقذفه على فراش غرفتها هاتفة بسخط:

- لقد قابلته بالفعل.. قابلته وليتني ما فعلت!

وانفجرت تبكي بحرقة!

***

"**حظك اليوم:**

لا تطاردي السراب للأبد.. قد تكون الإجابة أقرب إليك من بحيرات الوهم".

كررت أروى العبارة عدة مرات، قبل أن تعيد الهاتف إلى هالة وهما تقفان في ساحة الكلية، قائلة:

- لا تبدو لي عبارة ذات مغزى.. هذا كلام يدأب النصابون على كتابته لخداع السذج.. (وحدجتها بنظرة جانبية) هل بدأت تصدقين هذا الكلام الفارغ أيتها العبقرية؟

قالت هالة بحيرة:

- وماذا عن: "تقابلين غريبا وتتركين قلبك معه"؟.. أنا لا أؤمن بخرافات الأبراج، ولكني أيضا لا أميل لتفسير كل شيء بأنه مصادفة.
- إمم.. هل حاولتِ معرفة المرسل؟
- كان هذا طبعا أول شيء أفعله.. لكن الرقم يبدو غريبا ولم تفلح محاولة الاتصال به!
- وما وجه الغرابة في الرقم؟
- لا يصلح أساسا كرقم هاتف محمول من مصر.. يبدو لي كرقم من دولة أخرى.
- ربما كانت الرسالة مرسلة عبر خدمة الرسائل القصيرة المجانية من إحدى خدمات الإنترنت.. يبدو أن أحد المواقع يرسل هذه الرسائل للدعاية، وسيرسل في رسالة قادمة عنوان الموقع ويطلب تسجيل عضويتك فيه.. بعد عدة رسائل سيصدف أن يجد معظم المستقبلين بعضها أو إحداها

تتشابه مع بعض مواقف حياتهم، خاصة مع عباراتها الفضفاضة الموحية.. هذه حيلة لا تخيب أبدا مع النصابين وضاربي الودع!

نظرت لها هالة بارتياب قائلة:

- أو أن أحدا يعرفني ويعرف موضوع الغريب هذا، قد قرر أن يُعابثني!

ضحكت أروى قائلة:

- يا إلهي.. لقد أصابك جنون الشك!.. لا يا أستاذة "عاقلة".. لن أصل بدعاباتي السمجة معك إلى هذه الدرجة.. انفضي الفكرة عن رأسك سريعا أرجوك.

زفرت هالة، وهزت رأسها كأنها تنفض الفكرة بالفعل!

وهمست أروى:

- المهم الآن ماذا ستفعلين؟
- فيمَهْ؟
- في موضوع (عمّو).
- لا شيء.. لا يوجد ما يمكن فعله.
- بل يوجد حل بسيط.. عودي اليوم إلى بلدتك بالقطار.

نظرت لها هالة باستنكار، فواصت غير عابئة بنظرتها:

- وأنا متأكدة أنه ستريه.
- (بغيظ) وما جدوى هذا يا نابهة؟.. لو كان الأمر يعنيه لما تركني أمضي حزينة دون أن يسألني عن شيء.
- لكنه سألك إذا كنتما ستلتقيان مرة أخرى.
- وحينما أجبته بالنفي لم يعترض.. من الجلي أنه لا يراني أكثر من فتاة يستمتع بالحوار معها.
- أظن الأمر أكثر من هذا.. وإلا فما مغزى كلامه عن التقاء الغريبين؟

تحيرت هالة لحظة، قبل أن تزفر قائلة بيأس:

- لا أدري.. لا أدري ولا أهتم.. لو كان الأمر يعنيه، لكان اتخذ أي خطوة إيجابية.
- ربما فاجأه الموقف ولم....

قاطعتها بحسم:

- أريحي نفسك يا أروى.. الأمر محسوم بالنسبة لي، ولن أقدم على أي خطوة تحرجني أمامه بلا طائل.. لقد اختار القدر لكل منا طريقه وانتهى الأمر.

كانت كلماتها قاطعة، حتّى إن أروى هزت رأسها بقلة حيلة، ولم تعقّب.

لقد قال القدر كلمته.. فأي كلام يقال بعد هذا؟!

***

ظلت رسائل "حظّك اليوم" تتوالى إلى جوّال (هالة) بشكل يومي:

*** فارسك بجواد مجنح.. وقد رحل مع شعاع الغروب.**

*** لا فرح يدوم ولا حزن يدوم.. لكن الحب الصادق يدوم.. للأبد.**

*** تحب المرأة بأذنيها ويحب الرجل بعينيه.. لكنكما لستما أي رجل وأية امرأة!**

*** هناك شجن بداخلك، ولكنه خفيف كالهيليوم، يجعلك تحلقين في عالم الخيال بعيدا عن أرض الواقع.**

*** يفكر فيك دائما كما تفكرين فيه دائما.. المسافات لا تهم.**

*** تقابلينه يوما ما.. حينها لن تفترقا من جديد.**

*** الحب كالضوء لا نمسكه بين أصابعنا، لكنه ينير عيوننا وبصائرنا.**

*** هناك امرأة أغلى من الذهب، لهذا لا يلفت انتباهها كثيرا.**

*** تحبينه لكنك لا تعرفين شعوره نحوك.. أعملي عقلك قليلا.. أو على الأقل اسألي قلبك.**

*** لا تتركيه لامرأة أخرى.. أنت لم تستسلمي من قبل!**

***

أقصت هالة هاتفها المحمول جانبا، وتنهدت قائلة:

- وحتى لو لم أستسلم.. ماذا أفعل؟!

كانت تساؤلاتها حول تلك الرسائل اليومية تزداد، خصوصا وأن كل رسالة كانت تلمس وترا ما في نفسها.

لكنها في النهاية قررت ألا تشغل بالها بمصدر هذه الرسائل، مكتفية بالعيش مع مضمونها!

***

*** تقاطع الدربان يوما فالتقى الغريبان ساعة.. ثم واصل كل منهما دربه المرسوم في صفحة الأقدار.**

*** هناك قلوب تشعر بنا وتدعو لنا وترعانا، حتّى وإن فصلتنا عنها المسافات.**

*** هناك غريب يهواك، لكنه يخشى أن يخطف أحد قلبك قبل أن يعود إليك من غربته!**

تنهدت هالة بعد مطالعة هذه الرسالة قائلة:

- لقد حاول بعضهم.. لكنهم لم يجدوا قلبي في موضعه!

***

*** يبحث الشعراء عن جمال عينيك.. ويبحث الحكماء عن روعة عقلك.. وأنتِ عن أي شيء تبحثين؟**

*** الحلم عالم لا يعرف المستحيل.. فلا تتخلي عنه بسهولة.**

*** هناك أشخاص نقابلهم لدقائق، لكنهم يعيشون فينا لآخر العمر.**

*** من يحبك حقا، لا يمكن أن يتخلى عنك ببساطة.. حتّى وإن كان كل شيء يوحي بعكس هذا.**

*** تنتظرك اليوم مفاجأة.. هل تحبين المفاجآت أم تتوجسين منها؟**

قالت لنفسها بشرود:

- أحب المفاجآت.. أي شيء يكسر رتابة الأيام.

ثم نفضت شرودها وقالت بسخرية:

- ماذا دهاني؟.. هل استحوذت عليّ هذه الرسائل فصرت أصدقها أم ماذا؟

***

رنّ جرس هاتفها المحمول، فاعتدلت في فراشها، ونظرت إلى الرقم الذي تعرضه شاشته.

لم يكن مسجلا لديها، ولم يبد لها مألوفا، ففكرت بأن تغلق الهاتف لتخلد للنوم، لكن فضولها الأنثوي تغلب عليها، ودفعها لتفتح الخط.

- مرحبا.. من معي؟

أجابها الصمت لحظة، قبل أن يقول محدثها:

- رجل غريب بحث عنك طويلا.

قفزت نبضات قلبها إلى الذروة، وهتفت بلهفة:

- عمّو؟!

وكانت مفاجأة مذهلة بالنسبة لها بكل المقاييس!

***

(٧)

أحبّك

سألها (ماهر) بلهفة:

- ما زلت تذكرين صوتي؟

لم تستطع (هالة) إخفاء نبرات السعادة في صوتها وهي تجيبه:

- هو مختلف قليلا عبر الهاتف.. لكنـــي لا أعــرف ســوى غريب واحد.
- يا له من محظوظ!
- ولكن.. كيف عرفت هذا الرقم؟
- أهداه القدر لي.
- (بفضول جمّ) كيف؟
- حينما نسيتِ هاتفك في القطار، التقطتُه، وهممت بـــالنزول خلفك، لكن فكرة التمعت في ذهني بغتة فطفقت أنفــذها.. اتصلتُ برقمي من هاتفك، وحينمـــا رن جـــرس هـــاتفي، حفظت الرقم الذي ظهر على شاشته في ذاكرتـــه.. كـــان القدر بي رحيما أن وجدت رصيدا في هاتفك، فلست ممـــن

يعرفون تلك الحيل التي يجعلون بها الهاتف يعرض رقمه الخاص!

اتسعت عيناها بدهشة، وصمتت لحظة عاجزة عن النطق، قبل أن تقول بعتاب تمثيليّ لم يُخفْ سعادتها:

- سرقت رقمي خلسة يا عمو؟!
- (ضاحكا) كان أثمن من قدرتي على المقاومة!
- (بغضب مفتعل) أنا المخطئة إذن أنني لم أستخدم رقما سريا لتأمين قفل الشاشة!
- (متنهدا بارتياح) أحمد الله على خطئك هذا، فلولاه لكنت فقدت كل وسيلة للاتصال بك.

تسلل الدلال إلى صوتها وهي تسأله بتهيب:

- ولماذا فعلت هذا؟
- (بتنهيدة حارة) لأني لم أتخيل أن تضيعي مني للمرة الثانية، دون أن أعرف عنك أي شيء يوصلني إليك.

خشعت أنفاسها وتوردت وجنتاها وهي تهمس:

- ولماذا تريد الوصول إليّ؟
- أتذكرين حينما حدّثتك عن أهم شيء ينقصني؟
- نعم.

- تذكرين ما هو؟
- شخص يفهمك.
- وقلتُ لكِ إنني وجدتُه مرةً وضاع مني.
- نعم
- (بحرارة) لم أكن لأسمح بضياعه مجددا بعد أن وجدته.
- (بتلعثم) ماذا تعني؟
- (برقة) أعني أنك هذا الشخص يا هالة.
- (بخفوت) شخص يفهمك؟
- (بفتون) شخص ينقصني.

كان قلبها يدق بعنف وهي تحاول تهدئته بلا جدوى، خوفا مـــن أن يسمعه ماهر عبر الطرف الآخر من الهاتف!

كانت سعيدة ومرتبكة.. منتشية وخائفة.. مذهولة وغير مصدقة.

ولكنها تذكرت فجأة خطيبته، فتجهمت وقالت بغيرة:

- لديك خطيبتك.. أنتَ لا ينقصك شيء.
- ليس لديّ غيرك.
- هل تعني....؟!
- نعم.. لقد انفصلنا.. لم أكن يوما لها.
- (بإشفاق) وما ذنب هذه المسكينة؟.. لا ريب أنها تعشقك؟

- (بمكر) وما الذي يجعلك واثقة هكذا؟

أجابته دون أن تنتبه:

- من الصعب ألا تعشقك أي فتاة تعرفك.

ثم انتبهت إلى المصيدة التي أوقعها فيها، فالتهب خـــداها خجـــلا وقالت بتلعثم:

- أعني أنها.. لا ريب أن...

قاطعتها ضحكته المجلجلة، فقلت بغيظ:

- علام تضحك يا عمو؟

كتم ضحكاته بصعوبة وهو يجيب:

- لا شيء.. فقط تذكرت فتاة سابقةً لسنها، وتخيلـــت كيـــف ستكون ساذجة جدا لو حاولت اللف والدوران وإخفاء ما هو واضح الشمس.

ازداد ارتباكها وخجلها، فقالت بعناد:

- ما زلت لا أدري ما ذنبها.
- لا ذنب لها، إلا أن قلبي ليس ملكها.
- (بغضب) هل جرح من يحبونك سهل هكذا لديك دائما؟
- (تنهد بألم) لم يكن سهلا، لكنها اختارت.
- كيف؟

- لاحظَتْ حزني وشرودي ونظري للهاتف كثيـرا بتـردد، فظلت تحاصرني حتّى اعترفت لها بكل شيء.
- (بلهفة) وبم اعترفت لها؟
- (بفتون) قلت لها إنني عشقتُ طفلة عبقرية، ظللت أبحـث عنها في القطارات كل يوم لمدة سبع سنوات.

خفق قلبها بنشوة وغمره دفء لذيذ، وصمتت طويلا، فواصل هو:

- لم يكن وقع كلماتي سهلا عليها، لكنها قالت إنهـا فهمـت أخيرا سر ولعي بركوب القطار، وسر فتـور علاقتنـا.. وقالت إنها على استعداد لأن تحترم مشاعري تجـاه تلـك الذكرى.
- (بلهفة) وبم أجبتها؟
- أجبتها بأنكِ لم تعودي ذكرى، وأنكِ ظهرتِ في حياتي من جديد.

صمتت هالة وهي غارقة في مشاعرها المتضاربة، قبل أن تـسأل بإشفاق:

- وماذا قالت عندئذ؟
- قالت إن حزن شخص واحد أسهل من حزن ثلاثة.

سالت دمعة من عين هالة وغمغمت:

- يا لها من محبة نبيلة!

ثم سألته بغتة بانفعال:

- ولكني لا أستطيع أن أفهم كيف تخلت عنك هكذا بمثل هذه البساطة؟

- (بمكر) ماذا ستفعلين لو كنت مكانها؟

- (باندفاع) كنتُ مَزّ.....

ثم فطنت إلى خدعته للمرة الثانية، فبترت عبارتها وقالت بغيظ:

- وما شأني أنا بهذا؟

ضحك باستمتاع مجيبا:

- اسألي نفسك!

قالت بارتباك ممزوج بالدلال وهي تحاول اصطناع اللامبالاة:

- أنا أتكلم بوجه عام.. هذا (لو) كنتُ مكانها.. مجرد مثال.

- (برقّة) لا تحاولي الإنكار يا هالة.. أو حتّى حاولي، فلن أسمح بإضاعة المزيد من عمري بعيدا عنك.

شملتها سعادة غامرة، فصمتت لحظة وهي تغمض عينيها محاولة استيعاب أن كل هذا يحدث فعلا، وأنه حقيقة واقعة.. حقيقة أحلى من كل أحلامها.

***

وأتاها صوت (ماهر) عبر الهاتف لينتزعها من عالم أحلامها:

- (هالة).. هل ما زلتِ معي؟

أجابته لتتهرب من خجلها:

- نعم.. لكني ما زلت لم أفهم لماذا تخلت عنك خطيبتك بهذه البساطة؟
- لم تكن هناك أي بساطة.. من أين جئتِ بهذا المصطلح؟
- مما حكيتَه.
- أنا لم أَحْـكِ كل شيء.
- كلي آذان مصغية.
- (متنهدا) لقد كانت متأكدة من صدق شعوري نحوك.
- (بفضول) كيف؟
- (بتردد) لقد رأتني في أضعف حالاتي، وهـي لـم تعتـد الضعف مني.
- (مبهورة) كنت حزينا من أجلي؟
- كانت دموعي تتلألأ في عينيّ دون أن أدري، وأنا أحـدثها عنكِ بمشاعر حارة!.. لقد احتفظتُ بحبي المجنون لنفـسي طويلا.. لم أَبُحْ به حتّى لأقرب المقربين.. لم أَهْذِ به فـي نومي أو حتّى في مرضي.. كنتِ سـرّي الـذي أحفظـه

بداخلي ككنز ثمين.. لكن الصندوق انفتح أمام (سلوى) فجأة فأغشى بريق كنزه عينيها.

مست كلماتها شِغاف قلبها، فسالت دموع (هالة)، وتمتمت في نـــدم هزم خجلها وترددها أخيرا:

- ليتني كنت بمثل ضعفك!
- (بلهفة) كيف؟
- (باندفاع) كل يوم منذ قابلتُكَ أول مرة، كانت نفسي تراودني لأن أستقل القطار علّني أراك.. لكنني كنت أخجـــل مـــن نفسي أن أكون مجرد مراهقة تبحث عن سراب الحب فـــي الخيالات التي صنعتْها عن أول رجـــل يـــدخل عالمهـــا.. وخفت أن أبتذل نفسي وأكسر كبريائي وأصير أضـــحوكة، فهل يعقل أن يلتفت شاب مثلك إلى فتاة صغيرة قابلها فـــي القطار يوما؟.. لهذا ظللت أقاوم هذه الفكرة لسنوات، حتّى تحول الخجل من لقائك مجددا، إلى يأس من تكـــرار هـــذه المصادفة أصلا بعد تقادم اللقاء.
- أما أنا فكنت أنتظرك في القطار كـــل يـــوم طيلـــة تلـــك السنوات.. يبدو أنكِ أكثر عقلا وأنني أشد جنونا!

- (بندم) سامحني.. لو كنت أعلم لما احتجتُ وقتا طويلا لكي آتي إليك.

سألها بلهفة وسعادة:

- هل تعنين أنك....؟
- (بخجل) نعم.. لقد ركبت القطار فقط لأبحث عنك.
- (ضاحكا بنشوة) يا إلهي.. أنت أشد جنونا مما ظننت!
- أظنني!.. فلسبب ما تخيلتُ أنني سأراك بعد كل تلك السنوات.
- وقد حدث!
- قد حدث!
- لكن ألم تفكري: ماذا لو ركبتُ العربة الخطأ.. ماذا لو لم أعرف ملامحه ولم يعرف ملامحي؟.. ماذا لو لم يكن موجودا من الأساس؟!
- فكرت.. ثم قررت أن أترك الأمر للقدر لا للعقل تلك المرة.. فلو كان لقاؤنا مكتوبا فلن يمنعه أهل الأرض جميعا.. اسأل أنت نفسك: وماذا لو لم أنْسَ هاتفي المحمول؟.. وماذا لو ضاع منّي بعدها ولم تستطع الاتصال

بي الآن؟.. وماذا لو، وماذا لو...؟.. أخبرني ما الذي تضمنه لنفسك غدا في الدنيا لتخطط حياتك خطوة بخطوة؟

- معك حق.. تحتاج الحياة إلى القليل من المغامرة.. بعد الكثير من الأخذ بالأسباب بالطبع.
- (مداعبة) وأخذ أرقام الهواتف خُلسة!

ضحكا معا على دعابتها، قبل أن يسألها بشغف:

- لكن لماذا بعد كل تلك السنوات؟
- تقصد قراري بركوب القطار؟
- نعم.
- (متنهدة) لقد عمل الزمن على هدم كل مبرراتي القديمة.. فها أنا قد نضجت وعلى وشك إنهاء الجامعة، وما زلت لم أقابل شابا مثلك.. لقد تأكدت أنني لم أكن مراهقة حينما انجذبت إلى عقلك، لأنك ظللت متفردا في حياتي طيلة سبع سنوات، حتى خشيت ألا تتكرر بعدها أبدا!
- (بعاطفة جياشة) حمدا لله.. لم أكن مجنونا كما توهمتُ، وكنتِ أنتِ عند حسن ظني دائما.. كنت أعقل من أن تكوني مراهقة، وأغلى من أن تبتذلي نفسك، وأضعف من

أن تضيعي حبّك.. ماذا يمكن أن يتمنى المرء أكثر من هذا في فتاة أحلامه؟

أسبلت رموشها حالمة مع حرارة كلماته التي تداعب أوتار قلبها، وهمست كأنها تحادث نفسها:

- كم صدقتْ الرسالة.. لقد تلقيت اليوم أكبر مفاجآت حياتي وأجملها على الإطلاق.

سألها بمكر:

- هل تقصدين رسالة "تنتظركِ اليوم مفاجأة.. هل تحبين المفاجآت أم تتوجسين منها؟"؟

انتبهت فجأة إلى هذه الحقيقة الجلية التي غابت عن ذهنها في خضم ذهول الموقف، فصاحت بدهشة:

- هل تعني أنك.....؟

ولم تكمل عبارتها بل صاحت في غيظ مرح:

- أيها المخادع.. ألن تكف عن التلاعب بقلبي؟

أجابها بفتون:

- لآخر العمر.

وهتف بصوت متهدج:

- أحبّك يا هالة.. أحبّك بمنتهى العقل والجنون.

وابتسمت (هالة) بنشوة والدموع تترقرق في عينيها وتسيل علـــى خديها الملتهبين!

وبدون وعي منها وجدت نفسها تهمهم بخفوت:

- أحبك يا ماهر.. يا حبّي الأول والأوحد والأجمل!

***

(٨)

مجنونان!

هتفت (أروى) بمرح:

- هل تسمح اليمامتان العاشقتان لغراب البين هذا بـــالجلوس هنا قليلا؟

ضحكت (هالة) بسعادة، بينما ابتسم (مـــاهر) وهـــو يـــشير لهـــا بالجلوس مجيبا:

- تفضلي.

جلست أروى بجوار هالة على المقعد المواجه لماهر في القطـــار، ومالت على أذن هالة هامسة:

- يا مجنونان!

لكزتها هالة وهي تبتسم، بينما قال ماهر بمرح ملوحا بإصبعه:

- لقد سمعت هذا!

ضحكت أروى قائلة:

- آسفة أستاذ ماهر.. لكن هذا أغرب شيء رأيته في حياتي.

تمتم بامتنان:

- لا عليك.. إن لك مكانة عندنا بعد الدور الذي لعبتِـــه فـــي إهدائي هذا الملاك الجميل.

غمزت لهالة ضاحكة، فلكزتها هالة مرة أخرى وخداها أحمـــران دون أن تنبس ببنت شفة.

وعاد التعجب يتملك أروى، فأشارت إلى عربـــة القطـــار التـــي امتلأت بأفراد من عائلتي ماهر وهالة قائلة:

- هذا أول حفل خطبة أحضره في قطار في حياتي.

ضحك ماهر قائلا بمرح:

- هذا أقل ما تنتظرينه من مجنونين!

ضحكت موجهة حديثها لهالة:

- لم أقل شيئا.. إنه يعرف حقيقتك.

صاحت هالة وهي تخبطها على كتفها في غيظ:

- كفى أيتها العابثة.. كفى.

- هكذا؟!.. الآن يقال لي "كفى" بعد كل الجهود التي بـــذلتها لتوقيع رأسين مجنونين في الحلال؟.. هذا هو جزائي إذن؟ (واحتضنت هالة بسعادة حقيقة) ألف مبروك يا حبيبتي.

ونهضت قائلة:

- ألف مبروك يا أستاذ ماهر.. اسمحا لي بالانـــصراف الآن بإرادتي، قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه، ويصير وجهـــي أحمر من شربات خطبتكما.

ضحك الثلاثة في مرح، وانصرفت هي تاركة خلفها ماهر وهالـــة يحلقان في سماوات سعادتهما.

وغرق ماهر في عيني هالة وصمت طويلا، فاعتراهـــا الخجـــل، وقالت بتلعثم:

- ما زلت لا أصدق أنك أقنعت عائلتك وعائلتي بهذه الفكـــرة المجنونة؟

مطّ شفتيه قائلا:

- إنها فكرة بسيطة.. لقد حجزت تذاكر الذهاب والإياب لكل مقاعد هذه العربة التي شهدت قصة حبنا، لتكـــون شـــاهدة أيضا على بداية رحلتنا الرسمية معا.
- أنا محرجة من النظر إليهم.. لا ريب أنهم ينظـــرون إلينـــا الآن ويتهامسون على جنوننا.
- (مال نحوها هامسا) لا تنظري إليهم إذن.. انظـــري فـــي عيني أنا فقط.
- (احمر خداها هامسة) هذا أشد إحراجا.

ضحك في استمتاع، ويده تتسلل لتحتضن يدها، فسحبتها منه برفق واحمرار خديها يتجاوز حد الخطر!

وهمس ماهر في نشوة:

- من كان يصدق أن هذا سيحدث، وأنك ستكونين لي يوما ما؟

سألته بتهديد تمثيلي:

- هل بدأت الندم من الآن أم ماذا؟
- ومن ذكر الندم يا أميرتي؟.. إنها اللذة أسكرت قلبي وعقلي، فجعلتني عاجزا عن تصديق أن عروس البحر الأسطورية صارت ملكي.
- أنا أيضا لا أصدق.. أخشى أن يكون مجرد حلم جميل.
- (ضاحكا وهو يشير حوله) حلم مجنون!
- (ضاحكةً) صدقت!

ورفعت هالة يدها اليسرى لتحتضن بها الدُّبلة الذهبية التي تزين يدها اليمنى، فنظر لها ماهر باسما، ورفع يده اليمنى إلى شفتيه ليقبل الدبلة الفضية التي تزينها بِوَلَهٍ، فخفضت هالة بصرها مبتسمة في حياء.

وسألها ماهر معاتبا:

- لماذا أصررتِ على الاكتفاء بدبلتين، وقد كنت أريد أن أجلب لك شبكة قيمة تليق بك؟

سألته بعتاب:

- أنتَ الذي تقول هذا، وأنت من علمني إعادة تقييم الأشياء بالعقل والقلب والروح بدلا من الاقتصار على الحواس؟
- لا يمنع هذا أن نستمتع بمباهج الدنيا.. (قلْ مَن حرّمَ زينةَ اللهِ التي أخرجَ لعبادِه والطيباتِ من الرزق).
- لا أعترض.. لكني أيضا أقدر وضعك المادي بعد أن تركت لخطيبتك السابقة كل الذهب والهدايا التي أعطيتَها لها.
- كانت مصرة على إعادتها لي.. لكني أجبتها أنني لن أستطيع أن أعيد اللحظات الجميلة التي أخذتها من عمرها، حتّى أستعيد بعض المتاع الزهيد.
- (بغيرة) وطبعا أخبرتها أن شيئا لن يجعلك تنساها، ولولا هادمة اللذات التي خطفتك منها لكنتما الآن في شهر العسل.

ضحك في مرح، فسألته مغتاظة:

- هل تُسعدكَ كلماتي إلى هذا الحد؟

- (من بين ضحكاته) طبعا.. ما أمتع غيرة النساء!
- (بغضب) أهذا كل ما يمكنك قوله؟

مال عليها هامسا:

- يمكنكني قول الكثير يا صغيرتي.. لكنك أغلى عندي من كل الكلمات.

نجحت كلماته في امتصاص غضبها، فتسللت بسمة سعيدة إلى شفتيها، وهي تنظر في عينيه بحب، حيث رأت نفسها فيهما ملكة قلبه المتوجة بلا منازع.

وأخذتهما لحظة صمت قصيرة عاشا فيها عمر الكون كله، قبل أن يسألها ماهر بجدية:

- هل من العيب أن يطور المرء أفكاره مع الزمن؟
- بالطبع لا.
- لقد قالت لي (سلوى) كلمة جعلتني أعيد التفكير في قيمة الذهب.
- (بغيرة) سلوى مرة أخرى.. هل سنمضي ليلة خطبتنا نتكلم عنها؟

ضحك وقال يشاغبها:

- وما المانع؟.. ما دام الكلام عنها يكشف مقدار حبك لي.

زمّت شفتيها بغضب طفولي منحها جمالا خاصا زادها فتنة، فقال:

- يمكنك أن تقولي إنها كانت نصف عقلي الأيسر.. الدنيا بكل مشاغلها واهتماماتها.. لكنك أنت نصف عقلي الأيمن بانطلاقه وخياله وإبداعه.
- يا سلام؟!.. لم يعد ينقصني إلا أن تقول إنك لا تستطيع العيش بدون نصفي عقلك معا!
- (ضاحكا) فكرة رائعة.. كيف لم تخطر لي على بال؟
- (بتهديد مرح) هل تعلم يا أستاذ ماذا يحدث لمن يسقط من قطار ينطلق بهذه السرعة؟؟.. حاول ألا تجعل هذا القطار يشهد نهاية مأساوية لقصتنا!
- يا إلهي.. لا لا.. الطيب أحسن.

ومال نحوها هامسا:

- ثم إن الفيصل في الأمر ليس نصف العقل هذا أو ذاك.. الفيصل هو القلب، وأنت قلبي كله.

انبسطت أساريرها، وتوردت وجنتاها في خجل ساحر، فقال هامسا:

- لكن هذا لا يمنعني من أن أنبهك إلى عيب صغير اكتشفته فيك الآن.. يجب ألا تعميك غيرتك عن اكتساب الخبرة حتّى من غريمتك.
- (تحفزت كقطة شرسة) آها.. غريمتي.. تعترف إذن أنها ما زالت تنافسني على قلبك؟!
- آخ.. يبدو أن النساء في النهاية لا يختلفن في هذه النقطة مهما زادت درجة عبقريتهن!
- الغيرة قانون الحب يا أستاذي.
- صدقت يا تلميذتي النابهة.
- فماذا قالت لك غريمتي عن الذهب إذن؟
- قالت إنها لم تكن تنظر إلى الذهب كقيمة مادية.. ليست من النساء اللاتي يغويهن المال أو تحب التفاخر بما لديها على قريناتها.. لكنها فقط نظرت إلى الذهب كهدية منّي تعبّر عن تقديري لها، وتذكّرها بي كلما نظرَتْ إليها، ويُشعرها ملمسها الدائم حول إصبعها بانتمائها لي.

تحسست هالة الدبلة حول إصبعها، وهمست بغيرة:

- منطقها قوي.. لا أدري لماذا تخليت عن فتاة كهذه؟

ضحك، فضربته بيدها في كتفه ضربة خفيفة، فقال يستفزها:

- لا تحاولي إثارة ندمي على خسارتها يا هالـــة، فلـــم تكـــن بالخسارة الهينة.

قالت بجدية وهي تشعر بالحزن وتأنيب الضمير:

- أخشى أن تكون ظلمتها معك، وأكون أنا مشتركة في هـــذا الظلم.. أشعر أنها تملك كل ما كنـــتَ تبحـــث عنـــه مـــن الصفات، لكنّ تعلُّقك بي كحلم جميل بعيد المنال حجب عن عينيك مزاياها.
- (عقد حاجبيه بتوتر) هالة.. لا أحب أن تمارسي معي لعبة تأنيب الضمير هذه.. لقد اختار كل منـــا طريقـــه وقُـــضِيَ الأمر.

قالت بغيرة شديدة:

- لكنها مظلومة فعلا.. من الخطأ أن ترفض الآخرين لمجرد أنهم يخالفونك في طريقة التفكير.. كل ما تحكيه لي عنهـــا يؤكد لي أنها لم تكن فتاة مسطحة تافهة عاجزة عن التفكير لتنفر منها.. كانت فقـــط تمتلـــك خـــصوصيتها ومنطقهـــا المستقل.

زفر قائلا:

- لست أرفضها ولا أنظر لها نظرة أقل تقديرا.. لكن أمر الحب والزواج يختلف عن العلاقات الإنسانية العادية التي يمكن أن نقبل فيها اختلاف المبادئ والأفكار والطباع.. وبالمناسبة: هناك ثلاث طبقات من التوافق لا يمكن أن ينجح أي زواج إن حدث خلاف في طبقتين فيهما.
- كيف هذا؟
- هناك الطبقة الأساسية من المبادئ والمعتقدات، والاختلاف بين الزوجين فيها يوقعهما في صراعات حول أهدافهما في الحياة نفسها ورؤيتهما لتربية الأبناء، وتقييمهما لكل موقف من حيث الحق والباطل والصواب والخطأ.. هذا يحدث مثلا إن تزوجت إسلامية من رجل علماني أو العكس.. وهناك الطبقة السطحية، التي تشمل الطباع والتصرفات اليومية، والاختلاف فيها يمكن أن يحيل حياة الزوجين إلى جحيم، بسبب كثرة شجارهما وغضبهما من أمور يومية تافهة متكررة، كاستفزاز الزوج لزوجته مثلا باستمراره في إلقاء ملابسه في كل مكان بينهما هي تقدس النظام، أو استمرار الزوجة في إزعاج زوجها بمطالبات أو ملاحظات تافهة وهو مندمج في مشاهدة مباراة كرة القدم.. وبين

هاتين الطبقتين طبقة متوسطة، تمثل كل الأمـــور التـــي لا تتكرر يوميا، ولها أهمية متوسطة من حيـــث الاعتقـــاد.. كالاختلاف مثلا في تقييم بعض الأشخاص أو ما شابه.

- (باهتمام) هل يوجد تعريف دقيق لكل هذه الطبقات؟
- لا.. هذا يختلف تبعا لشخصية ومعتقـــدات وطبـــاع كـــل زوجين، وهما من يحددان درجة أهمية كل أمـــر بالنـــسبة لهما.. وتوافقهما في هذا التعريف هو ما يجعل الحياة بينهما أيسر[٣].

تفكرت في كلامه لحظات، قبل أن تقول بإعجاب:

- فكرة مهمة للغاية.. أشكرك على تنبيهي لها.

ونظرت له قائلة بحسم:

- لكنك لن تنجح في إلهائي عن الفكرة الأساسية التـــي كنـــا نناقشها!

---

[3] التأمل الخاص بطبقات التوافق مقتبس من حواراتي مع أستاذي المهنـــدس العالم وصديقي العزيز د. محمد عطية العربي، وقد بنـــاه علـــى خبرتـــه الشخصية في الحياة.. فله الشكر على كل ما أفادني بـــه.. زاده الله علمـــا ونفع به.

- (ضاحكا) يا إلهي.. ما الذي أوقعت نفسي فيه بالارتباط بعبقرية مثلك!

ابتسمت بفتور، فقال بجدية:

- أنا أحترم سلوى كثيرا ولم أعبها بكلمة واحدة، لكني أحبك أنت يا هالة، وأريد أن أُمضي باقي حياتك معك.

واحتضن يدها بيده رغم محاولتها غير المجدية لسحبها منها، ونظر في عينيها مباشرة وهمس:

- ليس ذنبي أو ذنبك أنكِ سرقتِ قلبي قبل أن أراها يا هالة.. أنا أحبك أنتِ.. أحبك.. هل تفهمين معنى هذه الكلمة؟

سحرته لمسته ونظرته، لكن عقلها أبى أن يستسلم أن قالت:

- أفهمها وأحسها وأعيشها.. لكني أفهم أيضا أن هناك امرأة منحتْكَ قلبها، ولم يكن ذنبها أنك ذهبت إليها بدون قلب.. لماذا ارتبطت بها إذن من البداية؟

- (بأسى) لأني يئست من أن أقابلك من جديد، فاستسلمت لعشرات الضغوط التي تدفعني للزواج.. إلحاح أهلي.. احتياجي لتكوين أسرة.. خروج زملائي من دائرة العزوبية تباعا.. صدقيني، لم أكن أملك حلا بديلا!

- (بألم) أتعرف أكثر ما يخيفني؟.. قدرة كل إنسان على تبرير ما يفعله.. لا يوجد إنسان على ظهر هذه الأرض يعجز عن إيجاد ألف سبب لكل خطأ يقع فيه.. لكن المقياس في النهاية هو أين تقع هذه المبررات من الحق والعدل.. فهل يمنع كل ما ذكرتَه لي الآن أنك قد ظلمت سلوى؟

نكّس ماهر رأسه لحظة، قبل أن ينظر لها قائلا:

- فليكن يا هالة.. دعينا نتعلم منها من جديد.. لقد حكمت هي بنفسها فدعينا نستمع لحكمها.. قالت: إن عذاب شخص واحد أسهل من عذاب ثلاثة أشخاص.. هذا يحسم كل شيء.

هزت هالة رأسها، وهمست بأسى:

- نعم.. ويؤكد أنها أحكم وأعمق وأنبل مما ظننتَها أنتَ بكثير.. خذها كلمة من غريمة لها والحق ما شهدت به الأعداء!

تنهد ماهر وهي ينظر لها قبل أن يصيح بغيظ:

- يا مجنونة.. إنك ستفسدين حفل خطبتنا بهذه النقاشات يا مجنونة.

ابتسمت وهي تقول بحب:

- هذه النقاشات هي التي جمعتنا معا في الأساس.. ولا أظن أنها يمكن أن تفسد ما بيننا أبدا.. فنحن متوافقان تماما، ومهما اختلفنا إن هو إلا اختلاف في الطبقة الوسطى!

ضغط يدها التي في راحته هامسا:

- أرأيتِ؟. ها أنتِ ذي قد حكمتِ بنفسك!

انتبهت إلى أن يدها ما زالت في يده، فسحبتها ووجها يحمر خجلا، مما جعله يبتسم وهو ينظر في عينيها بحب، ويقول وهو يغمز لها:

- دعينا نؤجل هذه النقاشات الآن، ولنذهب لالتقاط بعض الصور مع أحبابنا.. وبعد هذا أمامنا العمر كله بحلوه ومره لنناقش فيه كل ما نريد.

همهمت باستسلام:

- معك حق يا عمّو.
- (بعتاب رقيق) عمو؟.. ألا ترين أن هذه الكلمة كبيرة جدا عليّ؟
- (مبتسمة برقة) بماذا تريدني أن أناديك؟
- (بفتون) قولي لي يا حبيبي.. يا خطيبي.. يا حلم عمري الذي تحقق.
- (ضاحكة) ألا ترى أنك صرتَ طماعا؟

- لقد تعلمت القناعة في عينيك يا هالة، فأنت أغلى من كل أطماعي.

وتلألأت دموع الفرح في عيني هالة، وهي تشعر بأنها أميرة تعيش في عالم الأساطير.

وجذب ماهر يدها من جديد وهو ينهض.

وفي هذه المرة لم تحاول هالة سحب يدها من يده، وهي تتبعه وتبتسم بسعادة.

لقد تركت مصيرها كله بين يديه، وقررت أن تتبعه ولو إلى آخر الدنيا.

هكذا أحبه عقلها..

وهكذا عشقه قلبها..

وهكذا اعتنقته روحها..

وهكذا حلمت أن تكمل معه الحياة..

أحلى حياة.. إلى آخر العمر.

****

(تمت بحمد الله)

بدأت في عام ٢٠٠٦

وانتهت يوم ٢٠١٥/١١/٧

كتب أخرى للمؤلف:

- **لتحميل ديوان دلال الورد:**
http://www.mediafire.com/?n1qte7j9hdv1l98

- **لتحميل رواية "حائرة في الحب":**
http://www.mediafire.com/?hd1jy6ca4ay3m9w

- **لتحميل كتاب "خرافة داروين":**
http://mhmdhmdy.blogspot.com/2013/11/blog-post_29.html